روايات تاريخ الإسلام

استبداد المماليك

علي بك الكبير ومعاصروه من مماليك مصر وامراء الشام، والحرب بين تركيا وروسيا وغير ذلك من الامور السياسية والاجتماعية تشرح احوال مصر وسوريا في اواخر القرن الماضي، وحكم على

تأليف
جرجي زيدان

دار الجيل
بيروت - لبنان

إستبداد المماليك

الطبعة الثانية

ابطال الرواية

علي بك الكبير	: شيخ البلد في مصر
عثمان باشا	: والي مصر التركي
محمد بك ابو الذهب	: خليفة علي بك وصهره
الامير يوسف شهاب	: حاكم لبنان
الشيخ ضاهر الزيداني	: حاكم عكا
الامير أورلوف	: قائد الاسطول الروسي
السيدة نفيسة المملوكية	: زوجة علي بك
السيد المحروقي	: من السادة الاشراف بمصر
السيد عبد الرحمن	: تاجر مصري كبير
حسن	: ابن السيد عبد الرحمن
سالمة	: زوجة السيد عبد الرحمن
علي	: خادم الاسرة
عماد الدين	: رسول الشيخ ضاهر

- ١ -

في وكالة الصابون

استولى على مصر بعد الخلفاء الفاطميين كثير من السلاطين ، فظلت تحكم باسمهم الى ان آل امرها الى المماليك ، فاستبدوا في أحكامهم ، وضج اهلها بالشكوى منهم . واستمر الحال على هذا المنوال حتى غزاها الخليفة التركي السلطان سليم ، في عهد سلطانها الغوري ، فتم له فتحها ودخلها بعد قتله في وقعة مرج دابق ، حيث شنق خليفته طومان باي ، فصارت مصر منذ ذلك الحين تابعة لتركيا .

ونظرا الى بعدها من دار الخلافة ، رأى السلطان سليم ان يجعل في ادارتها انقساما يأمن معه خروجها من طاعته ، فجعل حكومتها مؤلفة من ثلاث سلطات :

اولا ـ سلطة الباشا : وهو الوالي الذي يرسله من الاستانة ، ومقره في قلعة القاهرة ، ويختص بتلقي اوامر السلطنة وتبليغها ومراقبة تنفيذها .

ثانيا ـ سلطة البكوات : وهم بقية الحكام المماليك ، وقد عهد اليهم في ادارة المديريات وحفظ الامن والنظام في البلاد ، كما هو شأن

المديرين الآن .

ثالثا ــ سلطة الوجاقات : وهي القوة العسكرية . وكانت مؤلفة من الانكشارية ، والمتفرقة ، والدلاتية (جند المغاربة) ؛ وغيرهم . وعليهـا جباية الضرائب والاعانات والغرامات وما اليها من الاموال التي تؤخذ لخزانة الدولة ، كما ان عليها الدفاع عن البلاد عند الحاجة الى ذلك .

على ان البكوات المماليك لم يقتنعوا بالسلطة الكبيرة التي منحت لهم، فما لبثوا قليلا حتى عادوا الى الاستبداد .

وكان من بينهم (شيخ البلد) ــ المنوط به حكم القاهرة والسهر على استتباب الامن والنظام فيها كما هو شأن محافظها الان . غير انه لم يكن يقنع بما دون السلطة المطلقة ، ولم يكن للباشا التركي بجانبه من السلطة الا مظاهر جوفاء ، لا اثر لها على الاطلاق .

فلما كانت سنة ١٧٦٣ ، وآلت مشيخة البلد الى علي بك الكبير ؛ كان اكثر المماليك شهامة وأعظمهم همة وأشدهم بطشا . ولكنه طمع في الاستقلال بمصر ، وحدثته نفسه بافتتاح البلاد المجاورة لها ايضا .

ولم تكن القاهرة في تلك الايام على ما هي عليه الان من اتساع العمران وكثرة السكان . فالاحياء المعمورة فيها حينذاك لم تكن تزيد على أحياء : الحمزاوي والغورية والجمالية والنحاسين وما جاورها . امـا الفجالة وشبرا والعباسية والاسماعيلية والجزيرة وغيرها من الاحيـاء الحديثة فلم تكن قد أنشئت بعد .

وكان للمدينة سور منيع به ابواب عدة ضخمة تغلـق عقب غروب الشمس كل يوم ، فلا يستطيع احد بعد ذلك ان يدخل المدينة او يخرج منها الا باذن خاص ؛ وما زالت بعض هذه الابواب وآثار السور باقية حتى اليوم .

اما اغنى هذه الاحياء كلها وأكثرها سكانا ورواداً ، فكانت هـي

الاحياء الواقعة في منطقة الجمالية وما جاورها من الغورية وخان الخليلي حيث تقوم مختلف المتاجر وقصور الاغنياء ٠

وهناك في الجمالية كانت توجد وكالة الصابون ، وهي يومئذ مجتمع كبار التجار وأصحاب الثروة ، فلا تخلو ساحتها الرحيبة من مئات منهم طول النهار ، بين بائعين ومشترين ومتفرجين ٠

وكان من بين تجار تلك الوكالة ، في العهد الذي جرت فيه وقائع روايتنا هذه ، تاجر مصري يقال له : (السيد عبد الرحمن) ٠ اشتهر رغم ضخامة ثروته واتساع تجارته بالتواضع الجم والاستقامة والبر بالفقراء، مع رجاحة العقل والاتزان ٠ وقد تعود ان يقضي نهاره في الوكالة يشرف على حركة البيع والشراء في متجره الكبير ، فاذا جاء المساء عاد الى منزله في شارع الكعكيين في الغورية حيث زوجته ، وولده الوحيد منها، وبعض السراري الشركسيات والحبشيات ٠

ولولا ما كان يقاسيه هو وغيره من استبداد المماليك وجورهم ، وكثرة الضرائب التي يطلبونها من وقت لاخر لكان له من ثروته الضخمة وتجارته الرابحة وحياته المنزلية الهادئة ما يجعله أسعد السعداء ، ولاسيما ان ولده الوحيد السالف الذكر ، واسمه حسن ، كان قد أتم تعليمه في الجامع الازهر ، ثم التحق بالبيمارستان المنصوري القائم في شارع النحاسين امام الطريق المؤدي الى بيت القاضي ، حيث بدى تفوقا في دراسة الطب على يد استاذ مغربي فيه ، واشتهر بين زملائه وعارفيه بالاستقامة والذكاء والاتزان كأبيه ٠ فلم يكن يغشى مكانا غير البيت والمدرسة ، ولا يمل المطالعة للاستزادة من المعارف والعلوم ٠



امضى السيد عبد الرحمن نهاره حتى العصر مشرفا على العمل في

متجره بوكالة الصابون كعادته • وكان ذلك في يوم من ايام سنة ١٧٧٠ • فلما سمع أذان العصر ، اشار الى خادمه فجاء بسجادة فرشها على دكة في ركن من المتجر ليصلي عليها العصر بعد ان توضأ لهذا الغرض •

ولم يكد السيد عبد الرحمن يبلغ الدكة وهو يتمتم ببعض الادعية ويحمد الله على ما أولاه اياه من النعم والخيرات، حتى لحق به احد الكتبة في المتجر ، وأنبأه بأن بعض موظفي الحكومة جاءوا يطلبون مقابلته • فاستعاذ بالله من ذلك ، لعلمه بأن هؤلاء الموظفين لا يأتون الا لطلب ضريبة او اعانة او توقيع عقوبة مالية بغير ذنب ولا جريرة •

وحدثته نفسه بأن يرجىء مقابلتهم حتى يصلي • لكنه خشي ان يهيج ذلك غضبهم وانتقامهم ؛ فرفع طرفه الى السماء وتنهد ، ثم عاد أدراجه الى مجلسه المعتاد في المتجر ليستقبلهم هناك ويرى ما وراء هذه الزيارة •

وكان هؤلاء الموظفون ثلاثة : احدهم الجابي ؛ وهو في زي المماليك المؤلف من السراويل الفضفاضة الطويلة المشدودة فوق الكعبين، والعمامة فوق القاووق ، وحول وسطه منطقة عريضة علق بها خنجر من الامام ، وعلى منكبيه جبة تدلى على جانبها الايمن سيف معقوف ، وقد تغضن وجهه وشاب شعر رأسه • والثاني جندي يحمل في يده دفترا كبير الحجم كتبت فيه اسماء التجار وغيرهم من الملاك والعمال ، وبيانات عن الضرائب المطلوبة من كل منهم • اما الثالث فهو الكاتب ، وعلى رأسه عمامة كبيرة ، وفي منطقته دواة مستطيلة من النحاس •

فلما دخل عليهم السيد عبد الرحمن ، بالغ في تحيتهم والترحيب بهم • وأسرع في مشيته للقائهم متكلفا البشاشة والابتسام ؛ ثم أمر لهم بالقهوة والغليون — اداة تدخين التبغ في ذلك العهد — ثم جلس بين ايديهم يكرر التحية والملاطفة اجتذابا لرضاهم عنه • وقلبه يخفق بين

جوانحه مخافة ان يكون مجيئهم لامر من ورائه خسارة له ٠

وضاعف من خشيته وريبته ان الجابي ؛ لم يزده ذلك كله الا غلظة وغطرسة ؛ وبقي صامتا يرمقه شزرا في ازدراء ملحوظ ، وقد جلس جلسة الكبرياء واضعا احدى ساقيه فوق الاخرى ٠ فلما جاء الخادم بالقهوة وبدأ بتقديمها له متأدبا . اشاح عنه بوجهه ،والتفت الى السيد عبد الرحمن . وقال له غاضبا : «اننا لم نأت لنشرب قهوتك ، ولا حاجة لنا بها . وانما جئنا نطلب حقوق الدولة !»

فأجفل السيد عبد الرحمن ، وتحقق وقوع ما كان يحذره : لكنه كظم ما به متجلدا وقال متظاهرا بالبشاشة : «اهلا وسهلا ومرحبا بالسادة الاجلاء ، مروا بما شئتم فما نحن الا عبيد مولانا علي بك ورهن امره في كل وقت !»

فقال الجابي : «مطلوب منك ان تدفع الف نصف ، مساعدة للحملة الذاهبة لنجدة شريف مكة بعد ايام» ٠

فاستكثر عبد الرحمن هذا القدر المطلوب من ماله ، رغم دفعه ضرائب باهظة منذ عهد قريب ؛ لكنه لم يجرؤ على اظهار ذلك ، واكتفى بأن قال: «هل هذا المال مطلوب دفعه فورا ؟»

فنهض الجابي مغضبا حانقا وصاح به قائلا : «ما شاء الله !٠ ومتى تظن ان تدفعه اذن ؟٠٠ أتريد ان يكون ذلك بعد عودة الحملة او هلاكها؟٠ ام لعلك استكثرت ان تدفع الف نصف من الآلاف المؤلفة التي تحصل عليها عفوا بلا تعب من أموال الناس وأنت جالس على وسادتك في أمان واطمئنان ، بينما نحن نتجشم الاخطار والاسفار لحماية بلادكم والدفاع عنها ؟٠ كلا يا سيدي ثم كلا ٠ يجب ان تدفع الفين اثنين لا الفا فقط ٠ فهل فهمت ؟!»

فندم عبد الرحمن على تعجله بالقاء ذلك السؤال ، ووقف وقد امتقع

لونه وارتجفت أطرافه ، وخشي ان يضاعف الجابي قيمة الضريبة المطلوبة مرة ثانية ، فمد يديه نحوه اشارة التوسل والخضوع وقال : «العفو يـا سيدي الجاويش ، اني ليسرني ان اقوم بالواجب علي وزيادة ، وانما اردت بالاستفهام ان اعرف هل هناك فرصة لتأجيل الدفع ام لا ، فالحالـة التجارية كما تعلمون ليست في هذه الايام على ما يرام ، وسبق ان تفضل جناب الخازندار بمثل هذا التأجيل مراعاة لظروف مماثلة» .

فازداد غضب الجابي ، وانتهر السيد عبد الرحمن بشدة ، وقال : «أتشكو الفقر وأنت قد ابتلعت اموال الناس ، وعشت من الارباح الطائلة في رغد ونعيم ، بينما نحن في شقاء دائم وتعب لا يطاق ، وتلقي بأنفسنا الى الهلاك دفاعا عنكم وعملا على راحتكم وطمأنينتكم ؟ ام نسيت ان تظلمك للخازندار يعني اننا ظلمناك ولم نعدل في تقدير المال المطلوب منـك ؟! »

فأخذ السيد عبد الرحمن يستعطف الجابي ويحاول استرضاءه واتقاء غضبه بكل وسيلة . ثم نادى كاتب المتجر وآمره بأن يعد ألفي نصـف ويحضرها فورا ، فحنى الكاتب رأسه سمعا وطاعة ومضى لتنفيذ ما أمر به . ثم عاد بالمبلغ المطلوب بعد قليل فسلمه للسيد عبد الرحمن ، وقدمه هذا للجابي فتناوله منه متظاهرا بعدم المبالاة ، وسأله : «كم نصفـا دفعت ؟ »

قال : «دفعت الالفين اللذين طلبتموهما» .

فقذف الجابي بالكيس الذي به النقود الى الارض ، ثم نهـض مغاضبا ، وصاح بالسيد عبد الرحمن محتدا يقول : «لقد أبطرتكـم النعمة . أالى هذا الحد بلغ جهلكم وغروركم وقلة انسانيتكم ، ام حسبت اننا عبيد لك او خدم عندك ؟»

فارتعدت فرائصه ، وازداد امتقاع وجهه ، وابتلع ريقه بصعوبـة

لجفاف حلقه ، ثم دنا من الجابي وقال في خشوع : «العفو يا سيدي ..
لقد اطعت امركم . ولي الشرف بهذه الطاعة الواجبة . فماذا اغضبكم ؟»

فقال الجابي : «هل عميت عن حق الطريق ؟»

ففطن التاجر الى انه لم يدفع للجابي بعض المال لنفسه فوق الضريبة كما هي العادة . وكان الخوف قد انساه ذلك ، فبادر بالاعتذار والاستغفار ، مؤكدا انه لا يمكن ان يغفل اداء مثل هذا الواجب المقدس، وانما وقع ذلك سهوا منه ومن كاتبه . فقال الجابي : «حقا انكم جهلة متأخرون ، لا تحترمون موظفي حكومتكم وتتجاهلون حقوقهم . وكان يجب ان تدفع حق الطريق قبل دفع الاعانة نفسها» .

فأخذ السيد عبد الرحمن يتضرع اليهم ان يغفروا له ذلك الخطأ غير المقصود ، مبديا استعداده لدفع ما يأمر به الجابي ، فقال هذا : «لا نطل الكلام ، ادفع مائة نصف» .

قال : «سمعا وطاعة» . ثم انطلق الى خزانته وجاء بالمال المطلوب في احدى يديه ، وفي الاخرى مثله لكل من الكاتب والجندي حامل الدفتر، ثم سلم كلا منهم نصيبه من حق الطريق ، وتنهد دلالة على الارتياح ، ووقف بين أيديهم متأدبا ، وفي نفسه انه ارضاهم جميعا وتخلص من شرهم ، ولا يلبثون قليلا حتى ينصرفوا فيعود الى اداء صلاة العصر قبل ان يفوت وقتها .

وشد ما كان عجبه وجزعه حين رأى الجابي يشير الى الكاتب الذي معه ، ويأمره بمراجعة الدفتر لعل هناك ضرائب اخرى لم تسدد بعد . فنظر الكاتب في الدفتر قليلا ثم التفت الى الجابي وقال : «ان له ارضا في الشرقية يدفع عنها كيسين كل سنة عشورا . والمطلوب ان يدفع الان عشور ثلاث سنوات سلفا ، لان الديوان محتاج الى نفقات كثيرة» .

فوجم السيد عبد الرحمن ثم تمالك نفسه وقال للجابي : «عفوا يا

سيدي ، ان هذه الارض لم تعد ملكا لي، اذ انني بعتها منذ سنة» .

وظن انّ الجابي سيقتنع بهذه الحجة ويعفيه من العشور المطاوبة . ولكن هذا بدلا من الاقتناع وضع يده على مقبض سيفه ورد عليه بقوله: «أتريد اختلاس أموال الديوان بالكذب والبهتان ؟.» ام تريد ان نكذب دفتر الحكومة ونصدق دعواك .. لا بد من دفع العشور المطلوبة الان والا كنت الجاني على نفسك» .

فتلعثم التاجر ولم يستطع جوابا لعلمه ان ليس اسهل على الجابي من قتله ونهب كل ما في متجره . ثم نادى كاتب المتجر وسأله امامهم : «هات ستة اكياس» . فقال الكاتب : «ليس في الخزانة الان الا كيسان اثنان، فهل آتي بهما ؟»

وعبثا حاول السيد عبد الرحمن ان يستعطف الجابي ليمهله الى اليوم التالي ريثما يدبر بقية المال المطلوب ، فاستأذنه في الخروج لاقتراضه من احد التجار ، فلما أذن له خرج يطوف بمتاجر زملائه في الوكالة ، حتى وفق الى من أقرضه الاكياس الاربعة الباقية ، فعاد بها الى متجره يتنازعه عامل الاسف على ما تجشم من خسائر مالية فادحة ، وعامل الشكر لله على ان نجاه من القتل بيد الجابي المتكبر الجبار .

وما بلغ المتجر حتى وجد كاتبه جالسا يبكي وينتحب بالباب ، والدم يسيل من جرح في رأسه . فسأله : «ما هذا ، وأين الجابي ومن معه ؟»

قال : «لم تكد تخرج حتى نادوني وأخذوا الكيسين طالبين ان أحضر لهم الاكياس الباقية في الحال لانهم لا يستطيعون الانتظار اكثر مما انتظروا . فلما كررت لهم الاعتذار بخلو خزانة المتجر ، اعتدوا علي بالضرب ونهبوا ما استطاعوا نهبه من السلع المعروضة في المتجر ، ثم انصرفوا حانقين متوعدين !»

فاستعاذ السيد عبد الرحمن بالله من ذلك الظلم المبين ، وراح يندب

سوء حظ مصر ونكبة اهلها بحكم المماليك المستبدين ، وجلس في المتجر مطرقا مفكرا ، ثم رفع رأسه بعد قليل ، ومسح دمعة انحدرت من عينه على خده ، وعزى نفسه قائلا : «الحمد لله على ان الخسارة لم تتعد الاموال ، ولو انهم قتلوني ما طالبهم بدمي احد» •

ثم نهض ومشى الى الدكة التي فرشت عليها السجادة للصلاة ، فصلى في خشوع وايمان ، ودعا الله ان يقيه شر اولئك اللصوص الطغاة غلاظ القلوب والاكباد •

* * *

جلس السيد عبد الرحمن في متجره بعد ان أدى صلاة العصر ، يفكر في الظلم الذي حاق به من الجابي وصاحبيه • وفيما هو في ذلك ، دخل عليه رجلان في زي كتبة الديوان وفي يد كل منهما دفتر ، فوقع الرعب في قلبه وعاد اليه اضطرابه أشد مما كان • على انه جاهد نفسه حتى لا يظهر عليه شيء من ذلك ، وخف الى استقبالهما والترحيب بهما ودعاهما الى الجلوس بجانبه • ثم أمر لهما بالقهوة والغليون ، وأخذ يلاطفهما معربا عن اغتباطه بتشريفهما اياه بالزيارة •

ومع انهما كانا أقل خشونة من الجابي وصاحبيه ، وكان هو على يقين من انه دفع اكثر من قيمة الضرائب التي يحصلانها باسم عوائد الوالي والأغا (رئيس الشرطة) ، والمحتسب (ملاحظ المكاييل والموازين والاسعار) • بقي خائفا يترقب شرا من وراء زيارتهما • لعلمه في الوقت نفسه بأنهما وأمثالهما ليس لهم رواتب من الحكومة بل هم يفرضون لانفسهم ضرائب شهرية على التجار وأصحاب الحرف ، يقدرونها حسبما يتراءى لهم ، وربما اخذوها مرتين او ثلاثا في الشهر ، بغير رحمة ولا شفقة •

ولم يطل به الانتظار حتى وقع ما كان يحذره ، فنظر احد الكاتبين في الدفتر الذي يحمله والتفت اليه قائلا : «مطلوب منذ الان مائة نصف من عوائد الحسبة ، ومثلها من عوائد الوالي والأغا» .

فقال : «انني أذكر اني دفعت هاتين الضريبتين منذ بضعة ايام فقط» .

وهنا صاح الكاتب الاخر في وجهه قائلا : «كيف تقول مثل هـــذا الكلام وأنت تاجر كبير تربح الكثير ؟ . وهل جئنا اذن لنختلس اموالك؟ .. ها هو الدفتر امامك وقد سجل فيه ما دفعت وما يجب ان تدفعه . وهو مال الحكومة كما تعلم ، ولا سبيل الى التهرب من دفعه !»

فاستعاذ السيد عبدالرحمن بالله من شر ذلك اليوم ، وقال : «العفو سيدي . اني لم أقصد شيئا من ذلك ، وانما ذكرت ما اعتقدت انـــه الحقيقة ، ولعلي واهم . وجنابك أصدق على كل حال . فمعذرة» .

ثم نهض وقدم لهما المال المطلوب ، وفوقه (حق الطريق) لكل منهما ، وقال : «ارجو قبول معذرتي مع خالص احترامي وشكـــري على ان شرفتموني بهذه الزيارة الكريمة» .

فضحك الكاتب الاول متظرفا وقال له : «انت رجل لطيف يا سيد عبدالرحمن» . ثم نظر الى قطعة من الحرير الثمين كانت بين السلـــع المعروضة في المتجر وقال : «بكم تبيع هذه القطعة ؟.. انها تصلح قباء (قفطانا) لي» .

فقال : «هي لك يا سيدي وقد وصل ثمنها» . ثم أمر بعض عمـــال المتجر باحضار قطعة مماثلة ، وقدم القطعتين للكاتبين متأدبا وهو يقول: «انه لشرف عظيم ان تحوز بضاعتي اعجاب رجال الحكومة» . فأخذا القطعتين وانصرفا مشيعين بكل احترام .

وكانت الشمس قد أوشكت ان تغرب ، فعجل السيد عبد الرحمن بانجاز ما لديه من اعمال ضرورية مثل كتابة الخطابات للعملاء ومراجعة

حساب البيع والشراء في ذلك اليوم ، كما اعاد ترتيب السلع في المتجر، ثم هم باغلاق المتجر والعودة الى منزله قبل ان يسود الظلام ، ويتعرض لاخطار الطريق ، اذ كانت الطرقات والاسواق في ذلك الحين لا تضيئها سوى بعض المصابيح الضعيفة الخافتة الضوء ، معلقة على ابواب الحارات وبعض المنازل ،

وفيما هو يغلق المتجر ، جاءه بواب الوكالة مهرولا يقول : «لقد عاد الجابي يا سيدي !»

فأجفل واستعاذ بالله من شر هذه العودة ، وأخذ يلعن سوء الحظ الذي جعله يحترف التجارة وأطمع فيه اولئك الحكام الذين لا يرحمون،

وبعد قليل وصل الجابي ، فاذا به يترنح من فرط سكره ، وقد أمسك خنجره بيده ، ومن خلفه رفيقاه في مثل حاله ، فهم السيد عبد الرحمن بالفرار من وجوههم ، لكنه خشي ان يدركوه ويقتلوه ، فآثر البقاء وترامى على يد الجابي يهم بتقبيلها متذللا متضرعا ، فدفعه هذا بقوة وانتهره قائلا : «أهكذا تهرب من دفع مال الميري يا خائن ؟» ، وأخذ يكيل له أفحش ألفاظ الشتم والسباب ، ويهدده بالخنجر الذي في يده ،

فجثا السيد عبد الرحمن بين يديه ، وهم بتقبيل قدميه وقال : «اني عبدكم يا سيدي ، وهذا حانوتي بين أيديكم فخذوا منه كل ما تريدون، فأنا رهن اشارتكم» ،

فقال الجابي وهو ما زال يترنح : «حسنا ، اذن هيا ادفع المطلوب منك ، واياك ان تعود الى مثل ذلك التهرب» ،

فسارع الى احضار الاكياس الاربعة التي اقترضها ، ودفعها له ومعها (حق الطريق) لكل منهم ، وهو يدعو لهم بطول العز والبقاء ،

فقهقه الجابي الثمل مغتبطا وقال : «حسنا ، حسنا ، يلوح لي انك رجل عاقل حسن التصرف» ، ثم أغمد الخنجر وأعاده الى موضعه في

منطقته ، وهم بالانصراف •

وفيما كان التاجر يشيعه بكلمات الشكر والدعاء ، دنا منه الجندي حامل الدفتر ، وهمس في أذنه قائلا : «ان الديوان أمر بتجنيد ولـدك وأخذه الى الحرب في الحجاز مع الحملة الذاهبة الى هناك بعد ايام • وذلك لان جنود المماليك لا يكفون لهذا الغرض ، ولا بد من امدادهم بجنود آخرين من سكان البلاد المصريين والاتراك والمغاربة والشوام» •

فبغت السيد عبد الرحمن . وكاد قلبه يقف لهول هذا النبأ المرعب ، وشعر بأن كل ما لحقه من الظلم والاهانة والخسائر المالية الجسام لا يعد شيئا يستحق الذكر بجانب اخذ ولده الوحيد الى الحرب •

وأدرك الجندي ذلك منه . فاقترب منه وهمس اليه مرة اخرى قائلا: «اطمئن يا سيدي • واشكر الله على ان هيأ لك ولولدك مخرجا من هذا المأزق • فان جناب الجابي جزاه الله خيرا قد رثى لحالكما ، وأعمل نفوذه وحيلته لاعفاء ولدك من ذلك التجنيد • وأظن انه استحق بذلك ان تشكره وتكافئه على معروفه هذا ببعض المال !»

فتنهد التاجر ، وذهب عنه الروع ، وشعر بأنه مدين بسعادته لمعروف ذلك الجابي المستبد السكران ، فهم بيديه يقبلهما والدموع تطفر مـن عينيه • ثم نادى خادمه وأرسله الى التاجر الذي اقترض منه الاكياس الاربعة في العصر ، ليقترض له مثلها على ان يردها له كلها في الغد • ثم جلس مع الجابي وصاحبيه في انتظار عودة الخادم . ولسانه يلهج بشكرهم والثناء على أريحيتهم ومروءتهم •

والتهز ثلاثتهم هذه الفرصة ، فأخذوا في انتقاء ما خف حمله وغلا ثمنه من السلع الموجودة في المتجر وأخذها لانفسهم وهو لا يستطيع ان يمنعهم ، بل كان يعرب لهم عن اغتباطه بذلك • فلما عاد خادمه بالاكياس الاربعة المقترضة ، تناولها منه ، وأعطى الجابي كيسين ، وكلا من الجندي

وكاتب الجابي كيسا . فأخذوها وانصرفوا بها وبما اتقوه من السلع .

وما كادوا يخرجون من الوكالة حتى سارع السيد عبد الرحمن الى اغلاق المتجر ، وغادرها هو الاخر عائدا الى منزله ، وقد سدل الليل نقابه. وفي يده مصباح من الورق يستعين به على تبين الطريق .

* * *

كان من عادة السيد عبد الرحمن ان يمر في طريق عودته الى المنزل كل مساء بالبيمارستان المنصوري الذي يدرس الطب فيه ابنه حسن ، فيصطحبه من هناك الى المنزل .

ولما وصل الى البيمارستان ، وجد ابوابه مغلقة . فأدرك انه تأخر عن الموعد الذي تعود المرور به فيه لاصطحاب ابنه . وتذكر ما وقع له في متجره ذلك اليوم من الاهانات والخسائر . ولكنه حمد الله على ان نجى ولده الوحيد من خطر التجنيد . وواصل سيره حتى وصـل الى شارع النحاسين ، فسمع وقع أقدام خلفه من بعيد ، فأوجس في نفسه خيفة ، وانزوى في منعطف هناك ، حتى مر به القادمون ، وتبين من كلامهم انهم جماعة من الجند ، بينهم الجابي وصاحباه . فبالغ في الانزواء حتى بعدوا، وأمن شرهم ، ثم عاد بمصباحه الى الشارع ، وواصل سيره ، وهو لا يكاد يرى ما امامه لضعف الضوء ، وشدة قلقه واضطرابه .

ولما بلغ شارع الكعكيين ، واقترب من الحارة التي بها منزله ، لاحظ ان باب الحارة مفتوح على غير العادة . اذ كانت ابواب الحارات تغلق كلها عقب الغروب . فاشتدت وساوسه وأسرع في مشيته ليقف على سبب ابقاء الباب مفتوحا ، وأخذ يدعو الله بقلبه ألا يكون السبب مما يسوءه.

وقبل ان يبلغ الباب ، سمع شخيرا عميقا بالقرب منه ، ولمح على ضوء

مصباحه الخافت جسم انسان ممددا على الارض ، فدنا منه وقرب المصباح من وجهه فتبين انه البواب ، وانه جريح يسيل الدم من رأسه ووجهه ، وبجانبه الخشبة الغليظة التي توضع خلف باب الحارة من الداخل ويدخل بعضها في الحائط لتكون بمثابة المزلاج . وكانوا يطلقون عليها اسم (الدقر) . وقد لوثت بالدم السائل من جرح المسكين .

وأخذ السيد عبد الرحمن ينادي البواب باسمه ، فلم يستطع هذا جوابا ، واستمر في شخيره وهو يئن انينا خافتا متقطعا . فأدرك انه في غيبوبة الموت . واشتد خفقان قلبه وارتعدت فرائصه لهول ذلك المنظر المروع . وحدثته نفسه بأن يبلغ الامر الى رجال الشرطة في مقرهم الخاص بالمنطقة . ثم خشي ما قد يجره عليه هذا من الظلم والاهانة . كما رأى ان بقاءه بجانب البواب الصريع قد يوقعه في تهمة قتله وهو بريء منها. فغادر المكان مسرعا ودخل الحارة ملتمسا الطريق الى منزله فيها . وما كاد يخطو بضع خطوات حتى سمع وقع أقدام كثيرة خلفه ، فالتفت فاذا برجلين كأنهما ماردان ، يرتديان ملابس قصيرة وفي يد كل منهما عصا غليظة طويلة ، وصاح به احدهما قائلا : «قف مكانك يا مجرم ، أتظن ان التخلص من جريمة القتل سهل الى هذا الحد ؟!»

فوقف السيد عبد الرحمن ، وقد امتلأ قلبه رعبا ، ولم تعد ساقاه المتخاذلتان المرتعدتان تقويان على حمله، ولاسيما بعد ان رأى احد الرجلين رفع عصاه وهم بأن يهوي بها على رأسه . على انه تحامل على نفسه متجلدا ، وقال للرجلين في صوت متهدج : «لست والله مجرما ، ولا انا ممن يستطيعون قتل هرة» .

وكان جوابهما ان انقض عليه احدهما وقبض على عنقه بيد من حديد حتى كاد يزهق روحه خنقا ، بينما اطفأ الاخر المصباح ، وراح يجرد التاجر من كل ما يحمله من نقود وثياب وأوراق وحلي وغيرها .

ثم القياه بقوة على الارض وتركاه ذاهلا يئن من فرط الالم ولاذا بالفرار، بعد ان هدداه بالقضاء على حياته ان هو فتح فمه بكلمة واحدة !

ولم يسعه الا الامتثال ، فبقي صامتا ساكنا حتى ابتعدا ، ثم نهض ومشى الى منزله بما بقي عليه من الملابس الداخلية ، وهو عاري الرأس حافي القدمين . فلما اقترب من المنزل سمع فيه صراخا وعويلا فازداد اضطرابه . وطرق الباب طرقا شديدا ، فأطل بعض الخدم من نافذة تشرف على الباب ولم يستطيعوا معرفته لتغير هيئته وملابسه ولضعف ضـــوء المصباح المعلق بالباب ، وحسبوه لصا او محتالا فانهالوا عليه بالشتائم والحجارة . لكنه صاح بهم مهددا متوعدا ، وأخذ يدعوهم بأسمائهم حتى عرفوه ففتحوا له الباب واستقبلوه معتذرين باكين . ورأى الجواري محلولات الشعر يلطمن وجوههن نادبات معولات . وعلم منهن ان زوجته وحدها في غرفتها ، وانها تكاد تكون غائبة الوعي كأنما أصيبت بالذهول او الجنون . وذلك لان عساكر المماليك جاءوا الى المنزل منذ قليل وهم سكارى ، وقبضوا على ولدهما حسن وساقوه الى الديوان تمهيـــدا لتجنيده وارساله الى الحرب !

- ٢ -

في قلعة القاهرة

ادرك السيد عبد الرحمن ان الجابي هو الذي اقتحم منزله وأخـذ ولده ، رغم الاكياس والسلع التي اخذها منه في المتجر هو ومن معه ،

فطفرت الدموع من عينيه حنقا وحزنا • ومضى الى زوجته في غرفتها فوجدها قد حلت شعرها وشقت ثيابها وتورم خداها واحمرت عيناها من شدة اللطم والبكاء • وما وقع نظرها عليه حتى صاحت قائلة : «لقد اخذوه •• اخذوا حسنا الى الحرب والقتل» • واستأنفت اللطم والعويل•

ولم يستطع مغالبة تأثره الشديد بهذا المنظر ، فأخذ هو الاخر يلطم وجهه وأطلق لدموعه العنان • وشاركهما في ذلك كل من في المنزل من الخدم والجواري •

وأخيرا ، اقتربت منه زوجته وهي على تلك الحال وقالت له : «ألا تخرج للبحث عن حسن والوقوف على ما تم في امره ، عسى ان توفق الى انقاذه بأي ثمن ؟»

فقال : «لو قبلوا ان افتديه بكل ما املك ، وفوقه حياتي نفسها ما احجمت عن افتدائه • وقد بذلت للجابي كل ما طلب وزيادة ، على امل انه اعفاه من التجنيد رحمة بنا • لكنه لعنه الله ابى الا ان يفجعنا في مالنا وولدنا» •

فقالت : «سينتقم الله منه ومن كل ظالم عما قريب • لكن كيف نصبر على فراق وحيدنا وفلذة كبدنا ، وتتركهم يأخذونه من الدار الى النار ؟ »

فتنهد السيد عبد الرحمن ، وصر بأسنانه غيظا من ذلك الظلم ، ثم قال لزوجته : «وماذا اصنع وأنا لا استطيع الخروج من المنزل الان ؟»

فأبدت دهشتها وقالت : «وما الذي يمنعك من الخروج ؟»

قال : «يمنعني ان على باب الحارة قتيلا مضرجا بدمائه ، وقد كادوا ان يقبضوا علي ويتهموني بقتله ، لولا ان كتب الله لي النجاة من ايديهم بعد ان اعتدوا علي بالضرب وسلبوني ثيابي وكل ما كان معي» •

فبغتت كما بغت جميع الحاضرين ، وأدركوا سبب مجيئه الى

المنزل عاري الرأس حافيا ليس عليه الا الملابس الداخلية . ثم سألته زوجته : «ألم تعرف من ذلك القتيل ؟»

قال : «عرفته . هو بواب الحارة المسكين !»

فقالت : «تبا لهم من ظلمة أشرار !.. ذهب المسكين ضحية الاخلاص والوفاء والدفاع عن الحق ، فقد سمعته يستمهلهم حتى تحضر ، وهم يهمون بأخذ حسن» . وعادت الى البكاء قائلة : «ترى اين انت الان يا ولدي ؟ وهل يقدر لنا ان نراك بعد الان ؟»

فلم يتمالك السيد عبد الرحمن عن البكاء معها ، وأخذ يندب حظه وولده قائلا : «آه يا حسن !.. كيف تركتك تذهب الى الموت وليس لنا في الحياة سواك ؟»

فقالت له زوجته : «ألا نشكو امرنا ونتظلم عسى ان ترق لنا قلوبهم او يطلقوا سراح ولدنا بأية وسيلة ؟»

فهز رأسه اسفا وحزنا وهو يتنهد ثم قال : «ولمن نشتكي يا سالمة ؟. هل نشتكي الى المماليك وهم انفسهم الذين ظلمونا .. ليس امامنا الا الله وحده نشكو اليه بثنا وحزننا ؛ وهو القادر على ان يكشف عنا هذا البلاء الذي غطى كل ما سبقه من ويلات ونكبات» .

فقالت سالمة : «أليس من وسيلة الى مقابلة الباشا واستعطافه ، لكي يوصي علي بك برد ولدنا الينا لانه لا يستطيع الحرب ؟»

فقال : «ان الباشا نفسه يشكو مثلنا ظلم المماليك عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين . لا .. لا . ليس لنا الا ان نشكو الى الله» .

ثم رفع يديه ورأسه الى السماء وأخذ يتضرع الى الله قائلا : «يا رافع السموات وباسط الارض ، يا عالما بكل شيء ، وقادرا على كل شيء ، نسألك بحق ذلنا وانكسارنا ، ان تلطف بنا فيما جرت به المقادير،

وتنتقم لنا من الظلمة الغاشمين بجاه خاتم الانبياء والمرسلين» •

* * *

لبث السيد عبد الرحمن وسالمة زوجته يبكيان ولدهمـــــا حسنا ، ويشاركهما في البكاء كل من في منزلهما من الخدم والجواري حتـى مضى الليل كله في ذلك دون نوم ولا طعام •

على ان السيد عبد الرحمن ما كاد يسمع أذان الفجر ، حتى نهـض وتوضأ وأدى ما عليه لله من فرائض للصلاة • وكان قد فاتته صلاة المغرب والعشاء بسبب ما تراكم عليه من الاحداث والاحزان •

ولما فرغ من الصلاة والدعاء الى الله ان يكتب السلامة لولده العزيز الوحيد ، جالت بخاطره فكرة رأى في تحقيقها ما قد يحقق رجاءه • فنهض ومضى الى زوجته في غرفتها حيث كانت تواصل البكاء وقد خارت قواها واحمرت عيناها ، وقال لها : «قد رأيت ان امضي الى السيـــد المحروقي في داره لاخاطبه في امرنا ، وهو من السادة الاشراف المقربين الى علي بك ، وما اظن انه يرفض التوسط لنا عنده ليأمر باطلاق سراح ولدنـا » •

فقالت : «حسنا تفعل ، وما اظن ان علي بك يرد مثل هـذا الطلب لصديقه الشريف الكبير • فهيا عجل بتنفيذ هذه الفكرة ، وعلى اللـــه التوفيـق » •

ثم رفعت يديها الى السماء والدموع في عينيها ورفعت صوتها المتهدج قائلة : «يا رب انت أعلم بحالنا فارحمنا يا أرحم الراحمين» •

وبعد قليل ، كان السيد عبد الرحمن قد استعد للخروج ، فارتدى جبة وقباء (قفطانا) ووضع على رأسه العمامة ، واحتذى نعلا جديدة بدل التي سلبه اللصوص اياها مع بقية ملابسه ودراهمه بالامس • ثم هم بالنزول

من دار الحريم في الطابق العلوي من المنزل ، داعيا الله بقلبه ولسانه ان يوفق في مهمته •

وفيما هو كذلك اذا به يسمع ضجة كبيرة امام المنزل ، ثم طرقات عنيفة على الباب ، فتسارعت دقات قلبه ووقف شعر رأسه وجحظت عيناه دهشة ورعبا ، ثم خطر بباله ان الطارق ربما كان ولده او رسوله او بشيرا بقدومه ، فعاودته همته وشهامته ، وخف الى نافذة قريبة منه فأطل منها على باب المنزل • وشد ما كانت خيبة آماله اذ رأى جماعة من العساكر والانكشاريين وبينهم رجال موثقون بالقيود والاغلال ، فعاوده رعبه وفزعه وتخاذلت ساقاه فلم يعد يستطيع الوقوف فضلا عن المشي ، فارتمى على مقعد بجانب النافذة حيث اعتمد رأسه بيديه وغرق في لجة من الوساوس والهموم •

وكان من في المنزل قد رأوا ما رآه فأخذهم ما اخذه من الخوف وتوقع الشر واجتمعوا حوله خافقة قلوبهم معقودة ألسنتهم حتى سالمة زوجته اذ تحول صراخها الى انين خافت مكبوت •

ومضت لحظة رهيبة علت بعدها ضجة المزدحمين بباب المنزل ، واشتدت الطرقات عليه ، وصحب ذلك صوت معالجة فتح الباب بالعنف ، فرفع السيد عبد الرحمن رأسه وأشار الى بعض الخدم الملتفين حوله ان ينزلوا لفتح الباب وادخال العساكر القادمين قاعة الاستقبال (المنظرة) في الطابق الارضي لتقديم القهوة لهم وسؤالهم عما يريدون • ففعلوا ما اشار به •

وبعد قليل صعد اليه احد اولئك الخدم وقد ازداد وجهه صفرة ، وأنبأه بلسان متلعثم ان القادمين هم رجال الشرطة المنوط بهم حفظ الامن والنظام بالمنطقة ، وأنهم قبضوا على كثير من سكان الحارة وغيرهم للتحقيق معهم في امر مصرع بواب الحارة ، ويريدون ان يخرج معهم

لسماع اقواله امام الوالي (رئيس الشرطة) في القلعة .

ولا تسل عن فزع السيد عبد الرحمن بعد ان سمع هذا الكلام ، على انه خشي ان يكون في تأخره عن النزول اليهم والخروج معهم الى القلعة ما لا تحمد عقباه ، فتحامل على نفسه وودع اهل منزله ثم تزود بقدر كبير من الدراهم لعله يحتاج اليها في الطريق . وهبط من دار الحريم الى المنظرة فحيى العساكر في ادب واحترام وقدم لهم نفسه فسرعان ما أوثقوه ثم خرجوا به مع المقبوض عليهم الاخرين آخذين طريقهم الى القلعة .

★ ★ ★

وصل السيد عبد الرحمن الى القلعة وقد أنهكه التعب والحزن وما قاساه من اهانات العساكر في الطريق . وهناك أوقفوه مع بقية المتهمين امام رئيس الشرطة ، فأخذ يهددهم بالقتل ويسمعهم أفحش السباب ، وكلما تراموا على قدميه مؤكدين براءتهم مما اتهموا به ، لج في طغيانه وأصم أذنيه عن سماع توسلاتهم .

وأخيرا ، أمر العساكر بأن يزجوا بهم في السجن ريثما ينظر في امرهم ، فهم هؤلاء بتنفيذ الامر ، وهمس جاويش منهم قائلا للمتهمين الموثقين : «ان جناب الوالي (رئيس الشرطة) لا يبالي تظلمكم ، ولا تهمه دعواتكم له بطول العمر والسلامة ، ولكن اذا دفع كل منكم نصف كيس مساهمة في دية القتيل ، فقد يقبل اعادة النظر في امركم ويعفو عنكم !»

فاستبشر السيد عبد الرحمن وقال في نفسه : «هذا طلب هين يسير» . ثم دفع للجاويش نصف كيس للوالي ، ونصف كيس له . واقتدى به من استطاع الدفع من المتهمين ، فأخذ الجاويش ما دفعوه من المال وعاد الى الوالي فتحدث معه هنيهة ، ثم جاءهم يقول : «قد عفا جناب الوالي عنكم» . فصاحوا جميعا شاكرين داعين .

وحسب المتهمون ، وفي مقدمتهم السيد عبد الرحمن ، ان المسألـة انتهت عند هذا الحد . ولكن العساكر ما لبثوا ان ساقوهم في قيودهم وأغلالهم الى مقر الأغا (محافظ المدينة) في القلعة بحجة اتمام التحقيق !

وكان هذا الأغا انكشاريا طويل القامة هائل الحجم، على رأسه عمامة بيضاء هرمية الشكل ، وعلى كتفيه العريضتين فرو سمور ، وهو كث اللحية عريضها ، تدل نظراته الشزراء على انه فظ غليظ القلب . فلمـا دخلوا عليه أمر بجلدهم قبل ان يسمع اي شيء عن امرهم . فأخذوا يتضرعون اليه ويستعطفونه مترامين على قدميه يحاولون تقبيلهما ، فركلهم وقال لهم محتدا : «اما ان تذكروا من القاتل واما كنتم القاتلين وحـق عليكم أشد العقاب !»

وبعد اللتيا والتي ، كتب الله لهم الخلاص من شر الأغا . بعد ان جمعوا من بينهم ما تيسر من المال ودفعوه له ولمعاونيه . فأمر بحل وثاقهم واطلاق سراحهم ، فخرجوا من عنده وهم لا يكادون يصدقون انهم نجواه

ولاح للسيد عبد الرحمن ان ينتهز فرصة وجوده في القلعة فيذهب لمقابلة الباشا في مقره هناك ، ويقص عليه حكايته ، فان لم يجد فائدة منه ذهب الى السيد المحروقي كما قرر من قبل . ثم تردد في تنفيذ هـذه الفكرة لانه لا يعرف اللغة التركية ، والباشا لا يتكلم الا بها ولا يعرف العربية . لكنه تذكر ان الباشا لا بد ان يكون لديه مترجم خاص او اكثر ، فزايله تردده ومشى في طرقات القلعة حتى وصل الى قصر الباشا فهاله عظم بابه ، وكثرة الحجاب الاتراك الواقفين به وعلى كل منهم سراويل قصيرة ، وقد تقلد بندقية .

ودنا من احد اولئك الحجاب واستأذنه في الدخول ، فسأله الحاجب: «ما حاجتك ؟» . قال : «لي قضية مهمة أريد ان اعرضها على أفنديـنـا الباشا » .

فقال الحاجب : «انتظر قليلا حتى تعرض امرك على جناب الكتخدا نائب الباشا» .

ثم دخل الحاجب وغاب دقائق عاد بعدها وقال له : «قد أذن جناب الكتخدا بدخولك عليه فتعال نفتشك اولا لئلا يكون معك شيء من السلاح» . وبعد ان فتشه وتحقق انه لا يحمل سلاحا ، قاده الى الداخل حيث مضى به الى غرفة الكتخدا ، وأزاح له الستارة الموضوعة على بابها فدخل وقلبه يخفق هيبة ، فوجد الكتخدا جالسا في صدر القاعة بالملابس التركية ، فحياه باحترام . وأشار اليه الكتخدا ان يجلس على مقعد بالقرب منه وكلم الحاجب بالتركية آمرا اياه بدعوة الترجمان اليه . فجلس السيد عبد الرحمن مطرقا ويداه على ركبتيه . وبعد هنيهة جاء الترجمان وسأله بالعربية عما يريد ، فأخذ يقص عليه حكايته من اولها الى آخرها ، وهذا يترجمها فقرة فقرة للكتخدا ، فيهز رأسه مبديا دهشته وأسفه .

والتفت الكتخدا اخيرا الى السيد عبد الرحمن وفي نظراته ما يدل على الرثاء له والرأفة به ، ثم قال له بوساطة الترجمان : «قد فهمت قضيتك وأدركت انك على حق فيما شكوته من الظلم . وسأذهب بنفسي لرفع هذا الظلم عنك ورد ولدك اليك» .

فلم يتمالك السيد عبد الرحمن عن الوقوف ودموع الاستبشار بقرب الفرج تطفر من عينيه ، ثم هم بتقبيل يد الكتخدا ، فمنعه من ذلك ، وأشار اليه ان يجلس كما كان . فعاد الى مقعده ولسانه ما زال يلهج بالشكر والدعاء .

وأخذ الكتخدا يتبسط في الحديث بوساطة الترجمان مع السيد عبد الرحمن ، الى ان استطلع رأيه فيما يقال من اعتزام علي بك الاستقلال بحكم مصر واخراجها من يد الدولة العلية ، فأجاب بقوله :

«وقد سمعت يا سيدي شيئا عن ذلك . وأكبر الظن ان الغـرض الاول لعلي بك من ارسال الحملة الى الحجاز ليس مساعدة شريف مكة ضد منافسه فقط ، بل غرضه اخراج تلك البلاد من يد دولة الخلافة ايضا . ولهذا أكثر من الجنود في تلك الحملة حتى لم يبق احد من الشبـان المقيمين بمصر الا ألحقه بها ، لا فرق في ذلك بين المصريين منهم والمغاربة والشوام والاتراك والاروام . وقد شاءت المقادير ان يكون ولـدي الوحيد بين اولئك المجندين ، مع انه من المتخرجين في الازهر ومدرسة السلطان حسن ، ولم يكتف بما حصله من علوم الدين واللغة وغيرهما فالتحق بمدرسة البيمارستان المنصوري ليدرس الطب على احد الاطباء المغاربة فيه» .

فقال الكتخدا : «ان هؤلاء المماليك قد امعنوا في طغيانهم وتمردهم على مولانا السلطان ، ولا شك في ان جلالته لا يقر هذه الاعمال ، لما عرف عنه من الميل الى العدل والحلم والبر برعاياه . ولا بد من وضع حد لهذه المظالم . فطب نفسا وقر عينا ، وثق ان حاجتك مقضية ، ولا يلبث ولدك ان يعود اليك سالما باذن الله» .

فوقف السيد عبد الرحمن ، وحاول مرة اخرى تقبيل يد الكتخدا ولكن هذا منعه ايضا ، ثم ودعه مطيبا خاطره مكررا وعده بالسعي العاجل بنفسه في سبيل رد ولده اليه . فخرج من عنده وقد أنساه ذلك كل ما عاناه من نصب وعذاب .

* * *

ما كاد السيد عبد الرحمن يهم بالخروج من القلعة ، حتى بصر بموكب قادم الى قصر الباشا ، يتقدمه شيخ ذو لحية طويلة راكبا على حمار ، وعلى رأسه عمامة غريبة الشكل . فسأل بعض الجنود عمن يكون هذا

الشيخ فقال له احدهم : «ألا تعرفه ؟... انه ابو طبق لعنه الله ولعن من أرسلوه ! »

فتذكر ما كان يسمعه عن الأوضه باشي الذي تعـــود المماليك ان يرسلوه الى الباشا الذي يقررون عزله ، لتبليغه هذا القرار . وكان العامة يسمونه أبا طبق ، نظرا الى ان عمامته متخذة من لبادة سوداء تنتهي عند حافتها بدائرة واسعة مصنوعة من نسيج من الاسلاك الرقيعة ، تجعلها أشبه بالقبعات الافرنجية الواسعة الحوافي . ولم يكن يذهب لاداء مهمته هذه الا راكبا على حمار ، ومن خلفه بعض أمراء المماليك .

فقلق السيد عبد الرحمن ، وأوجس في نفسه خيفة من ان يكـــون الرجل قادما لاعلان الباشا بعزله ، فتحبط مساعيه لاطلاق سراح ولده . وبقي واقفا حتى مر عليه الموكب فاختلط به ، وعاد معه الى قصر الباشا ليرى ما يكون .

فلما وصل الأوضه باشي او ابو طبق الى باب القصر ، ترجل عـــن حماره ، وهم بالدخول فتنحى كل من كانوا خلفه في الموكب ولم يدخل معه الا بعض أمراء المماليك . فدخل السيد عبد الرحمن في أثرهم ، ولم يمنعه الحراس لانهم رأوه في القصر منذ قليل .

ووقف الأوضه باشي امام قاعة كبيرة أدرك السيد عبد الرحمن من ضخامة بابها وفخامة الستارة المرفوعة عليه انها غرفة الباشا ، فأصلـــح الأوضه باشي وضع عمامته الغريبة وجلبابه الفضفاض المزرر من الامام ثم دخل دون استئذان وخلفه أتباعه ، فدخل معهم وأدار عينيه في القاعة فاذا الباشا قد جلس مطرقا في صدرها على سجادة ثمينة وعلى رأسه عمامة فوق القاوورق ، وعلى جبته فرو سمور ، وبيده مذبة من ليف النخل . فلما شعر بدخولهم رفع وجهه وبدت الدهشة في نظراته وبقي ساكنا . بينما اقترب منه الأوضه باشي ، ثم هم بيديه فقبلهما ، ثم تأخر قليلا

وثنى طرف السجادة التي يجلس الباشا عليها ، ورفع صوته وهو ينظر اليه قائلا : «انزل يا باشا» .

ثم مد يده فأخرج من ثوبه كتابا اخذ يقرؤه ؛ فاذا هو قرار اصدره المماليك بعزل الباشا ، وبأن يكون قصره بما فيه وكل حراسه تحت امرتهم منذ ذلك الحين !

ولم ينبس الباشا ببنت شفة ، ولكن وجهه بدا شديد الصفرة كوجوه الاموات ، وكادت المذبة تسقط من يده لما اعتراه على أثر سماعه نبأ عزله من الرعدة والارتجاف .

وانصرف الأوضه باشي على أثر ذلك مزهرا بأداء مهمته ، فركب حماره وانطلق بموكبه عائدا من حيث اتى . ولم يتمالك السيد عبد الرحمن عن البكاء اسفا على حبوط مساعيه بسبب ذلك العزل المفاجىء ، ثم تجلد وغادر القلعة آخذا طريقه الى دار السيد المحروقي عسى القدر الذي كتب له الفشل هنا ، يكتب له التوفيق هناك ..

- ٣ -

السيد المحروقي

وصل السيد عبد الرحمن الى دار السيد المحروقي وهو يدعو الله ان يأتيه بالفرج على يديه ، فوجد باب الدار مغلقا ، والسكون يخيم عليها على غير العادة . وكان يعهدها حافلة بالقصاد . فتشاءم وبحث عن البواب فيما جاور الدار فلم يجد له اثرا ، فعاد الى الباب وطرقه هائبا،

فسمع صوتا من الداخل يسأل : «من الطارق ؟» • فتشجع ورد على صاحب الصوت وهو لا يراه ذاكرا اسمه وانه جاء لمقابلة السيد في شأن خاص •

وسكت مرهفا أذنيه ليسمع الجواب ، فلم يسمع شيئا • ولما مل الانتظار هم باعادة طرق الباب لكنه سمع وقع أقدام قادمة من الداخل ، ثم فتح الباب وأطل منه احد الخدم داعيا اياه الى الدخول ، فلما دخل أغلق الخادم الباب كما كان ، ثم تقدمه الى حجرة الجلوس ، وكان بابها مفتوحا على مصراعيه . فلمح السيد المحروقي جالسا على وسادة في صدر الغرفة وفي يده كتاب يقرأ فيه ، والدخان يتصاعد من غليونه ، فأسرع السيد عبد الرحمن في مشيته حتى بلغ باب الغرفة فخلع نعليه وتركهما مع عصاه خارج الباب ، ثم دخل محييا في أدب واحترام وقبل يد السيد ، فهم هذا بالوقوف لاستقباله مرحبا به ، فأمسكه السيد عبد الرحمن ليحول دون ذلك وهو يقول: «أستغفر الله •• أستغفر الله» •

وأشار اليه السيد المحروقي بالجلوس على وسادة بجانبه ، وأمر له بالقهوة والغليون ، مكررا عبارات الترحيب به ، وكان قد عرفه من قبل، وكثيرا ما التقيا في الازهر وغيره من المساجد الجامعة ، ثم بدأ الحديث معتذرا من اغلاق باب الدار قائلا : «ان الاحوال الحاضرة اضطرتنا الى اغلاق الباب ، فالجنود كما تعلم يتأهبون للسفر الى الحرب في الحجاز ، ومن عادتهم ان يجوسوا خلال الديار للنهب والسلب والتحرش بالسابلة كلما هموا بالخروج للقتال • ولسوف يزدادون عتوا وفسادا في هذه المرة لان الديوان قرر اليوم عزل الباشا ، فمتى علموا بذلك أمعنوا في تمردهم واعتداءاتهم على السابلة والمتاجر والبيوت» •

فقال : «قد شهدت بعيني عزل الباشا منذ قليل ، وقد جئتكم من القلعة عقب انصراف ابي طبق منها» • وروى له حكايته من اولها الى

آخرها الى ان قال : «ولم يبق لي بعد الله ملجأ سواكم ، واني لأرجو ان ينفعنا الله ببركتكم فأنتم سلالة الشرف والمجد ، وقاصدكم لا يخيب بعون الله» .

ولم يتمالك السيد عبد الرحمن عواطفه التي هاجها تذكر ولـــده الوحيد ، وما هو فيه من خطر ، فأخذت دموعه تجري على خديه ولم يعد يستطيع الكلام . فتأثر السيد المحروقي ، ووضع كتاب الحديث الذي كان يطالع فيه جانبا ، ثم التفت اليه وقال : «صبرا يا اخي ، فالعقبى للصابرين ، ولا تحسبن الله غافلا عن ظلم هؤلاء القوم واستبدادهم ، وكأني به جل شأنه قد سلطهم علينا لنثوب اليه ونعلم ألا ملجأ الا اليه».

ثم تنهد وهز رأسه اسفا وواصل حديثه فقال : «ومن عجب انهم يدعون الاسلام ، والاسلام بريء منهم ومن اعمالهم التي لم يأت مثلها الفراعنة والمجوس . وقد طالما نصحنا لهم ورجونا اصلاحهم فما ازدادوا الا طغيانا وفسادا . وبلغ من قحتهم وكفرانهم بأنعم الله ان صرحـــوا بالخروج من طاعة مولانا السلطان منتهزين لذلك فرصة اشتغاله بمحاربة روسيا . وقد رأيت اليوم كيف عزلوا الباشا ، ليخلو لهم الجو ، وليفسدوا في الارض ما شاء لهم الظلم . وصحيح ان الباشوات الاتــراك قصرت أيديهم في الزمن الاخير وصارت الكلمة العليا في البلاد لهؤلاء المماليك، على اننا مع ذلك لم نكن نحرم من مساعدة على يد الباشا» .

فقال السيد عبد الرحمن : «هل ترى انهم يستطيعون تحقيق مطامعهم واخراج مصر من حوزة الخلافة ؟ وهل لا يخشون قوة الدولة وشـــدة بطشها ؟ »

قال : «انهم لجهلهم أحوال الدنيا يظنون انها في متناول أيديهم ، وانهم سينالون مرامهم من ايسر سبيل . ومما جرأ علي بك على هذا فيما علمت ان كاتبه (المعلم رزق) زعم له ان علم التنجيم دله على نجـــاح

مساعيه في سبيل الاستقلال بمصر • ومنذ ذلك الحين وعلي بك لا يعمل عملا الا بمشورة ذلك الكاتب القبطي : ويسارع الى قبول كل وساطة له في شأنهم» •

فهز السيد عبد الرحمن رأسه أسفا وقال : «لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم !• أبعد ان كان خلفاء المسلمين وولاتهم لا يعتمدون في مشوراتهم الا على العلماء والفقهاء يأتي علي بك في اخر الزمان فيقلب الاوضاع ويتخذ النصارى أولياء ومستشارين من دون المؤمنين ؟!»

فقال السيد المحروقي : «وهناك شاب نصراني اخر من اهل البندقية. اسمه (روزتي) قربه علي بك اليه وجعله من خاصة مستشاريه ، ولاسيما بعد ان نجح روزتي هذا في عقد معاهدة بين اهل بلده وبين علي بك تقضي بأن يكونوا حلفاء وأنصارا له يمدونه بالعساكر وغيرهم عند الحاجة » •

قال : «سمعت ان معاهدة التحالف التي عقدها علي بك كانت مع المسكوف » •

فقال : «هذه معاهدة اخرى ، عقدت بين علي بك وبين الكونت الكسيس أورلوف اميرال الاسطول الروسي في البحر الابيض المتوسط، وقد تمت بوساطة رجل ارمني من مستشاري علي بك اسمه يعقوب • وقد كان هذا وذاك مما اغرى علي بك بالمضي في خطة الخروج على الخلافة ومحاولة توسيع نطاق سلطانه والاستقلال بمصر • وها انت ترى انه بذلك قد خرب البلاد ، وسلب اهلها املاكهم وأرزاقهم» •

فعاد السيد عبد الرحمن الى تذكر مصائبه وأفدحها اخذ ولده الوحيد الى حرب لا غاية لها الا مناوأة دولة الخلافة وتمكين السلطة للمماليك الظلمة المفسدين ، فتنهد وكفكف دمعة انحدرت على خده وقال : «ألا يرى السيد لن هناك املا في اطلاق سراح ولدي المظلوم • انه وحيد أبويه

كما تعلم ، ولم يجاوز العشرين بعد ، ولا معرفة له بالحرب والقتال ، فهو قد امضى طول عمره حتى الان في الدرس والتحصيل ونسخ الكتب القيمة النادرة من المكتبات . وأعتقد انه ان مضى الى الحرب فهو هالك لا محالة . كما اني وأمه لن تنتفع بحياتنا بعده ، اذ هو كل آمالنا في الحياة» . قال ذلك وعاد الى البكاء .

فأخذ السيد المحروقي يخفف عنه وقال له : «ان علي بك كما تعلم رجل غضوب ، اشتهر بأنه أشد بطشا من أسلافه جميعا ، وكنا نحسب في اول عهده انه اقرب الى العدل والرفق بالرعية ، مما كان يصرح به حينذاك ، لكنه ما لبث قليلا حتى عاد الى ما طبع عليه هو وأسلافه من الجور والارهاب وأكل أموال الناس بغير الحق ، وقتلهم بالجملة دون اي ذنب اقترفوه . حتى صارت رؤيته وحدها كافية لادخال الرعب والفزع الى قلوبهم . ولعلك سمعت بالمساكين الذين ماتوا في مجلسه منذ حين ، حين رأوه لاول مرة فأرعبتهم هيئته التي تظهره اقرب الى الاسد منه الى الانسان !»

قال : «نعم سمعت بذلك ، غير اني أعلم كما يعلم غيري انه يجل منزلتك ويحترم كلمتك . وأرجو ان تزول شدتي بفضل وساطتك في قضيتي عنده ان شاء الله» .

فقال السيد المحروقي وهو يمشط لحيته بيده : «حقق الله رجاءك ، وسأسارع الى مقابلته الآن لاخاطبه في هذا الشأن ، وعسى الله ان يرق قلبه فيكرم شيبتي هذه ولا يردني خائبا» .

* * *

صفق السيد المحروقي بيده ، فجاء احد خدم الدار ووقف متأدبا فقال له : «سأخرج بعد ساعة في مهمة الى القلعة ، فأبلغ السائس ليسرج

البغلة» • فحنى الخادم رأسه سمعا وطاعة وانصرف لتنفيذ ذلك الامر •

وبينما السيد عبد الرحمن يهم بالنهوض مستأذنا في الانصراف وهو يكرر الشكر للسيد المحروقي على كرم وفادته ومبادرته باجابة ملتمسه ، جاء الى القاعة خادم اخر وقال : «ان سراج علي بك (سائس جـواده) بالباب» • فقال السيد : «دعه يدخل» • ثم التفت الى السيد عبد الرحمن ونظر اليه كأنه يستبقيه حتى يعلم فيم ارسل علي بك يدعوه اليه • فبقي جالسا حتى عاد الخادم ومعه السراج ، ثم وقف هذا متأدبا بباب القاعة وقال : «ان مولانا علي بك يدعو سيادتكم الى منزله الليلة للمفاوضة في بعض الشؤون» •

فسأله السيد المحروقي : «وأين هو الان ؟»

قال : «هو في القلعة لاستعراض الجنود المسافرين الليلة الى الحجاز، وقد تركته جالسا في قصر الباشا هناك بعد ان عزل هذا وتم الاستيلاء على القلعة وما فيها» •

فقال السيد المحروقي : «ابلغ تحياتي الى البك ، وسأكون في شرف مقابلته بعد ساعة ان شاء الله» •

فحنى السراج رأسه اجلالا ، وتقهقر خطوات ثم خرج من الدار وركب جواده المنتظر بالباب ومضى عائدا الى القلعة •

وعلى اثر ذلك نادى السيد المحروقي خادمه الاول ؛ وأمره باحضار ملابس الخروج الرسمية • فأحضرها له بعد قليل • وهي مؤلفة من فروة سمور تلف حول العنق ويرسل طرفاها على الكتفين • وعمامة كبـيرة ملفوفة حول قاووق طويل تبدو قمته ظاهرة في أعلاها •

وكان السائس قد أسرج البغلة ووقف بها عند الباب استعدادا لخروج سيده عليها ، فهم السيد عبد الرحمن بيد السيد المحروقي وقبلها ؛ وسار معه حتى ركب البغلة ومضت به في الطريق الى القلعة • فعاد هو الـــى

منزله ليبشر من فيه بما أشرق في قلبه من الامل في انقاذ ولده الوحيد العزيــز •

وفي طريقه الى المنزل ، سمع المنادين يصيحون في الشوارع والحارات قائلين : «ليكن معلوما لديكم يا اهل مصر ان الجنود سيخرجون اليوم من القلعة بأمر مولانا علي بك ذاهبين الى الجهاد ، فأدعوا الله ان ينصرهم ويعيدهم الى البلاد سالمين غانمين» •

وكان الناس يسارعون الى اغلاق دورهم ومتاجرهم ، توقيا لمـــا تعودوه في مثل هذه الحال من قيام الجنود بالسلب والنهب والاعتداء على الآمنين والامنات دون خوف ولا حياء •

فلما وصل الى المنزل ، كانت زوجته قد سمعت نداء المنادين . فأمرت الخدم باحكام اغلاق الباب مخافة اعتداء الجنود ، ثم استأنفت العويل والنحيب جزعا على ولدها الذاهب معهم الى الحرب •

وما كاد الخدم يسمعون طرقه الباب بشدة حتى أجفلوا ، وساد الذعر كل من في البيت حتى خفتت اصوات زوجته والجواري • فلم يجد بدا من رفع صوته مناديا الخدم بأسمائهم ليعلموا انه هو الطارق ، فعرفوا صوته وسارعوا الى فتح الباب وقد زايلهم الذعر والرعب ، وبادرتـــه زوجته سائلة عما تم في امر مساعيه ، فقص عليها ما كان من ركـــوب السيد المحروقي لمقابلة علي بك والتوسط لديه في شأن تسريح حسن من الجندية ، وكتم عنها نبأ عزل الباشا • وما سمعه من السيد المحروقي عن شدة سطوة علي بك وغلظته حتى لا يقطع خيط املها ، وأخذ يهون عليها، ويتظاهر بالاطمئنان الى انفراج ازمتهما ، حتى عاودها بعض الاطمئنان وسكتت عن الصراخ والعويل • لكن قلبها لم يطاوعها على الصبر فقالت له : «ان قلبي غير مطمئن ، فلم يبق على سفر الجنود الا قليل ، وأرى ان تمضي انت لتلحق بالسيد المحروقي ، وتبقى معه حتى يخاطب علي بك

في امر ولدنا ، واذا اقتضى الافراج عنه التضحية بكل ممتلكاتنا وأموالنا فيجب ان نضحي بها دون اي تفكير» •

وهم بأن يصارحها بخشيته اعتداء الجند عليه في الطريق ، لان علي بك موجود في القلعة بعد ان عزل الباشا وحل محله فيها • لكنه آثر ان يكتم عنها ذلك ، ونهض متحاملا على نفسه ، وغادر الدار مسرعا ، بعد ان اوصى الخدم بأن يعودوا الى احكام اغلاق الباب ، والتيقظ لكـــل طارىء حماية لهم ولمن فيه من اي عدوان •

- ٤ -

في مجلس علي بك الكبير

كان اهل القاهرة قد التجأوا جميعا الى منازلهم وأحكموا اغـــلاق ابوابها ، بعد ان اغلقوا متاجرهم وتركوا اعمالهم ، ريثما يتم سفــــر الجنود •

ولم يعجب السيد عبد الرحمن لخلو الطريق من المارة حتى الحوذية والمكارين ، لعلمه بخشية الناس اعتداء الجنود ، وما تعوده هؤلاء من اغتصاب كل دابة يصادفونها في طريقهم بدعوى حاجتهم اليها في الجهاد• فمضى في طريقه الى القلعة وقلبه يخفق بشدة مخافة ان يلقاه بعـــض الجنود ويسلبوه ثيابه وما معه من المال • وما زال سائرا وهذا حاله حتى بلغ القلعة ، وهم بدخولها من (باب العزب) فاذا به يلمح شيخا يدخل منه راكبا جوادا ، وتأمله جيدا فاذا هو السيد المحروقي نفسه ، فعجب لتأخره

عن الوصول الى القلعة حتى تلك الساعة ، ولم يدرك سر ركوبه جوادا بدلا من البغلة التي رآه ممتطيا اياها ، ولاسيما ان المماليك لم يكونوا يسمحون لغيرهم بركوب الجياد .

فأسرع في مشيته حتى اقترب منه وناداه فالتفت اليه وعرفه ؛ فأوقف جواده حتى لحق به وسأله عما اتى به . فقص عليه ما حدث منذ فارقه. وأخذ ينظر الى الجواد كأنه يستفهم عما دعا السيد الى ركوبه بدلا من بغلته ، فأدرك هذا غرضه وقال له : «ان بعض الجنود الاجانب قبحهم الله ، اعترضوا طريقي ، وأبوا الا اخذ البغلة بما عليها ؛ ولم أنج منهم الا بمعجزة ، وبعد ان ابلغ الخادم الامر الى واحد من المماليك اتفق مروره في ذلك الوقت .. وأخبره بذهابي الى القلعة لمقابلة علي بك بدعوة منه، فجاء المملوك وانتهر من وجدهم من الجنود وهددهم بالقتـــــل ففروا هاربين ، وكان زملاؤهم قد فروا قبلهم بالبغلة وما عليها . فجاءني المملوك بهذا الجواد وهو من جياد علي بك فركبته وواصلت المضي في طريقي حتى جئت كما ترى» .

فهنأه السيد عبد الرحمن بالسلامة ، واعتذر اليه مما لحق به مـــن الاهانة بسبب خروجه في مثل ذلك اليوم لانجاز المهمة الخاصة به ؛ فقال السيد المحروقي : «هكذا قدر الله . ولا راد لما قدره ، ولا ذنب لك في الامر . فقد كان علي ان احضر الى هنا تلبية لدعوة علي بك . وعلى كل حال نحمد الله على اللطف فيما جرت به المقادير . ولعل الخير في هذا التأخير » .

ثم اشار اليه ان يتبعه عسى ان يستطيع الدخول معه الى مجلس علي بك ، ويعرض عليه بنفسه مظلمته ، وحينئذ يتدخل هو في الامر ، ويلتمس انصافه . فوافق على ذلك شاكرا .

ولما وصلا الى الساحة الداخلية في القلعة ، وجداها قد امتـــلأت

بجماعات من الجند ، من مختلف الاجناس والازياء ، وقد علت ضوضاؤهم وهم يتأهبون للخروج • فأخذ السيد عبد الرحمن يتفقدهم لعله يرى ولده بينهم • ولكنه لم يستطع الاهتداء اليه بين جموعهم المختلطة بين مماليك وأتراك ومغاربة ومصريين وأروام وشوام وغيرهم ، ولكل جماعة منهم علم خاص ، وقائد من جنسهم ، وأبرزهم المغاربة بطراطيرهم المصنوعة من جلد السمور ، وعباءاتهم المزركشة بالذهب ، والانكشارية بطراطيرهم المدلاة اطرافها على ظهورهم . وفي مقدمتها فوق الجبهة ريشة تنتهي عند أعلاها بشعبتين ، وقد تمنطق كل منهم فوق قبائه (قفطانه) بحزام عريض • والمماليك في زيهم المعروف ، المؤلف من القباء المزركش ؛ والمنطقة العريضة يتدلى السيف من جانبها الايمن ، ويبدو الخنجر تحتها من امام ، والعمامة الانيقة ملفوفة على قاووق طويل •

★ ★ ★

ما كاد حراس القصر الجدد يلمحون السيد المحروقي قادما على جواده حتى خفوا الى استقباله بتحيات الاجلال والتعظيم ، لعلمهم بمكانته الممتازة عند مولاهم علي بك ، فضلا عما عرفوا من علمه وفضله وتقواه • وبعد ان عاونه بعضهم على الترجل ، ساروا بين يديه حتى اجتاز الباب وخلفه السيد عبد الرحمن وقد حسبوه تابعا للسيد المحروقي فتركوه يدخل معه •

ولما وصلا الى باب القاعة الكبرى حيث مجلس علي بك ، ادرك السيد عبد الرحمن انها القاعة التي قابل فيها الباشا في الصباح ، فقال في نفسه : «سبحان محول الاحوال» • ثم رأى الستر المسدل على الباب قد رفعه احد الحاجبين الواقفين هناك فدخل السيد المحروقي لا يلوي على شيء وعاد الحاجب فسدل الستر كما كان • فهاب الدخول خيفة ان

يمنعه الحاجب ، وخشي في الوقت نفسه ان يطيل الوقوف بالباب فيدعو هذا الى الريبة في امره وربما أوذي بسبب ذلك ، فكر راجعا حتى بلغ الباب الاول ، ووقف مع خادم السيد المحروقي المنتظر بالجواد هناك . وتشاغل بالحديث معه .

وعلم الخادم من حديثه انه راغب في حضور مجلس علي بك ، وان السيد المحروقي نفسه هو الذي اشار عليه بذلك ، فقال له : «ان هذا امر ما أسهله يا سيدي ، وما عليك الا ان ترضي الحاجبين ببضعة ارباع من النقود ، فتجد الستر مرفوعا وتدخل بكل اطمئنان» .

وسرعان ما وافق السيد عبد الرحمن على هذه الفكرة فعاد الى باب القاعة . حيث حيى الحاجبين ووضع في يد كل منهما بعض المال ، فردا تحيته بأحسن منها ، ورفع احدهما الستر فدخل القاعة بسلام ، ثم تمهل في سيره وهو يجيل عينيه في المجلس . فاذا به يرى علي بك جالسا على متكأ مرتفع في صدر القاعة ، مرتديا الجبة والعمامة ذات القاووق . وقد منطق بحزام عريض برز منه على الصدر خنجر مقبضه من الذهب المحلى بالجواهر . فهاب منظره لطول شاربيه ولحيته ، واتساع صدره وجبهته، ولما يبدو في نظراته من دلائل الجرأة والذكاء وغلظة القلب . وكاد يهم بالرجوع لولا ان رآه مشغولا بالحديث مع الجالس عن يمينه وفي احدى يديه سبحة طويلة يقلب حباتها بأصابعه . وفي يده الاخرى مذبة من شعر الخيل .

وأدرك السيد عبد الرحمن ان هذا الجالس عن يمين علي بك هو صهره محمد بك ابو الذهب قائد الحملة الذاهبة الى الحجاز ، وكان في مثل ملابسه . ثم تأمل بقية من في المجلس ، فعرف اكثرهم ، وبينهم المعلم رزق كاتب علي بك ومدير حسابات حكومته ، وكثير من أمراء المماليك ، والسادة الاشراف يتوسطهم السيد المحروقي . لكنه لم يعرف

شابا رآه جالسا الى يسار علي بك مرتديا ملابس فخمة غريبة تشبه ملابس الافرنج ، ثم تذكر ما سمعه من السيد المحروقي عن المستشار الذي اتخذه علي بك لنفسه من اهل البندقية واسمه روزيتي ، فقال في نفسه: «لا بد ان يكون هو هذا الشاب» .

وما تقدم السيد عبد الرحمن خطوات وهو يختلس النظر الى علي بك حتى رفع هذا رأسه فخيل اليه انه ينظر اليه ولا يلبث ان يرتاب في امره فيأمر بقتله او سجنه ، فارتجفت ركبتاه خوفا ، وحدثته نفسه مرة اخرى بالرجوع ، ثم تذكر ولده الوحيد والخطر الذي هو فيه ، فهانت عليه الحياة ، وسرعان ما خلع نعليه ، ثم نزع عمامته وأمسكها بيده وتقدم مسرعا حتى جثا بين يدي علي بك وصاح قائلا : «أمان أفندم أمان . مظلوم وحياة رأس مولانا العادل علي بك» .

فبهت من في المجلس ، والتفت اليه علي بك متفرسا في هيئته وسأله : «ماذا جاء بك الى هنا ؟.. ومم تتظلم ؟»

قال : «اني يا مولاي تاجر في وكالة الليمون ، وليس لي غير ولد واحد تعبت في تربيته حتى أتم تعليمه في الازهر ، والتحق بالبيمارستان المنصوري لدراسة الطب . لكنهم اخذوه وتركوني وأمه في حياة خير منها الممات !»

فقال له علي بك : «من هم الذين اخذوه ؟ ولماذا ؟»

فرفع السيد عبد الرحمن رأسه وقال بصوت مختنق والدموع تنهمل من عينيه : «لا ادري يا مولاي من اخذوه ، ولكني علمت انهم ساقوه الى القلعة ليسير مع الجند الخارجين للحرب . وهو لا يقوى على القتال والاسفار» .

فالتفت علي بك الى من في المجلس كأنه يستطلع رأيهم ، فسارع السيد المحروقي الى الكلام وقال : «اني أعرف هذا التاجر ، وهو رجل

طيب مخلص للحكومة ، وابنه من طلبة العلم النجباء» .

فقال علي بك : «كيف اخذوه اذن وقد امرت بألا يجند احد من طلبة العلم ؟»

فقال السيد المحروقي : «لعل امره التبس عليهم ، لانه بعد ان درس علوم الدين واللغة في الازهر التحق بالبيمارستان المنصوري لدراسة الطب كما ذكر ابوه الان» .

ففكر علي بك هنيهة ثم قال : «على اي حال لا وجه للتظلم من تجنيده ، فالجهاد في سبيل الحرمين الشريفين واجب على جميع المسلمين. وهم أولى بهذا الامر من الجنود الغرباء الذين تطوعوا للذهاب في حملة الحجاز» .

فقال السيد المحروقي : «لقد نطق مولانا بالصواب ، ولكني ارجو ان تسع رحمته هذا التاجر المسكين ، اذ ليس له ولد اخر» .

فبدا الغضب في وجه علي بك وقال محتدا : «ما هذا ؟!. هل كل اهل هذه البلاد مساكين ضعفاء لا يقوون على الجهاد ؟.. لا . لا . لقد رفضت عشرات من أمثال هذه الدعوى ، ولا يمكن ان أستثني احدا من القيام بواجب الجهاد للدفاع عن شريف مكة» .

فعاد السيد عبد الرحمن الى البكاء والتوسل ، والتفت السيد المحروقي الى علي بك وقال : «لا شك في صواب رأي مولانا ، ولكني ألتمس من فضله وحلمه اكرام شيبتي هذه باطلاق سراح ذلك الغلام ، وأنا كفيل بأنه يقوم لمولانا بخدمات نافعة اخرى ان شاء الله» .

فقال علي بك : «قلت لك انني قررت ألا أستثني احدا من اهل هذه البلاد ، لعلمي بأنهم يتهربون من الجهاد . لكني اكراما لك سأطلق سراح ذلك الولد على ان يحل ابوه محله في الحملة ويدفع عشرين كيسا» .

فخشي السيد المحروقي ان يراجعه في ذلك فيثور غضبه من جديد

ويعدل عن هذا الاستبدال ، وقد يأمر بأخذ الولد وأبيه معا الى الحرب.
فالتفت الى السيد عبد الرحمن وهو لا يزال جاثيا بين يدي علي بك وقال له : «انهض وقبل يد الامير جزاه الله خيرا ، ثم سارع الى اعداد عدتك للسفر مع الحملة الليلة ، وهات معك العشرين كيسا المطلوبة . لاطلاق سراح ولدك » .

فلم يسعه الا الطاعة ، ونهض فقبل يد علي بك ، ثم انصرف عائدا الى منزله ، حيث أخبر زوجته بما كان ، ففرحت بنجاة ولدهما ، وجزعت لحلول ابيه محله في الحملة ، لكن السيد عبد الرحمن هون عليها الامر، وأسر اليها انه سيعمل على التخلف عن الحملة حالما تصل الى الشام . وهناك يقيم بعكا في انتظارها ومعها ولدهما حسن بعد ان يبيعا ما بقي من ممتلكاتهما في مصر ، دون ان يشعرا بذلك اي انسان غير خادمه الخاص .

فخف جزعها ووافقته على هذا الرأي ، ثم نادى خادمه الخاص وأسر اليه ما تم الاتفاق عليه ، موصيا اياه بأن يبذل جهده في اتمام ذلك ثم يصحب زوجته وولده الى عكا ، فقبل الخادم يده باكيا واعدا بتنفيذ الوصية . ثم حمل الاكياس المطلوبة وسار خلفه بعد ان ودع من في المنزل الى القلعة حيث سلم الاكياس ، وتسلم ولده ، ثم ودعه وحل محله في الحملة ، وعاد حسن مع الخادم الى المنزل ، لتنفيذ وصية ابيه في الخفاء .

* * *

لبث حسن مقيما مع أمه بالمنزل يومين بعد سفر الحملة وفيها ابوه. ثم اخذ بعد ذلك يتردد الى متجر ابيه في وكالة الليمون ، متظاهرا بحلوله محله في البيع والشراء ، لكنه في الحقيقة كان يبيع كل ما استطاع بيعه،

دون ان يشتري شيئا ؛ حتى كاد ان ينتهي من بيع كل ما في المتجر •

وفي الوقت نفسه اخذت امه في بيع امتعة المنزل الا ما خف حمله وغلا ثمنه من الحلي والملابس وغيرها • كما باعت المنزل نفسه لاحـد الجيران • وسافر الخادم الى الريف ومعه توكيل من السيد عبد الرحمن ببيع كل ممتلكاته هناك ، فأخذ في بيعها معتزما التعجيل بذلك ليعود بثمنها الى القاهرة ويصحب حسنا وسالمة أمه في الفرار الى عكا للحاق بسيده هناك •

وفيما كان حسن جالسا في غرفته بالمنزل بعد ايام وهو يطالع بعض الكتب المخطوطة في الطب ، وأمه مشغولة باعداد حليها وبعض الامتعة الثمينة الخفيفة في صندوق صغير استعدادا لمغادرة مصر • سمع طرق عنيف على باب المنزل ، ثم توالى الطرق وتعالت الضوضاء في الخارج ؛ وجاء بعض الخدم يهرعون الى حسن في غرفته وقالوا : «ان الطارقين جماعة من العساكر المماليك وهم يسبون ويلعنون ويهددون بحرق المنزل بمن فيه » •

فبغت حسن وامتلأ قلبه رعبا وفزعا ، وكذلك كان شأن امه ، وكل من في المنزل من الخدم والجواري • ثم ازداد فزعهم اذ سمعوا صـــوت مقذوف ناري اطلقه احد المماليك الهاجمين على المنزل ، وأعقبه صوت مطارق تهوي على الباب لتحطيمه واقتحام المنزل بالقوة ؛ فلم يجد حسن بدا من فتح الباب واستقبال القادمين لعل في ذلك ما يخفف من حدتهم وشرهم • فما كاد الخدم يفتحون الباب حتى تدفقت منه جموع العساكر شاهرين السيوف والخناجر والعصي والمسدسات ، وأخذوا في نهب كل ما فيه ، وشد وثاق من يصادفهم من الرجـــال والنساء مع الضرب والاهانـة •

ولم تمض ساعة حتى كان المنزل قد أقفر وساده الخراب ، وساق

المماليك حسنا وأمه ومن معهما من الخدم والجواري الى القلعة موثقين مهانين ، كما حملوا كل ما كان فيه من الامتعة والآنية وغيرها الى هناك؛ بعد ان استبقوا لانفسهم ما وجدوه من المال والحلي وما اليهما من الاشياء الثمينة النادرة .

وهناك في القلعة سيق الجميع الى مجلس علي بك في القصر الذي اتخذه مقرا لمجلسه منذ عزل الباشا ، فلما وقعت عينه عليهم وهم يبكون ويستجيرون به مما لحقهم من العدوان ، صرخ فيهم غاضبا وقال : «هكذا يجب ان يكون جزاء الخونة والانذال ، واذا كان كبيركم قد فر هاربا من المعسكر بعد ان رأفنا به وقبلناه في الحملة بدلا من ولده ، فعما قريب يقبض عليه وينال ما يستحقه من القتل بعد ان ننزل به أشد العذاب !»

ثم أمر ببيع الجواري والامتعة والآنية بالمزاد ، وبأخذ الخدم الى السجن ريثما يبت في امرهم ، وأشار الى حسن وسالمة أمه وقال لاعوانه المحيطين به : «أما هذان فجزاؤهما بعد الضرب والاهانة وبيع ممتلكاتهما على مشهد منهما ، ان يؤخذ هذا الولد الخائن فيوضع في كيس ومعه حجر ثقيل فيه ثم يلقى في النيل ليهلك غرقا . وأما امه هذه فتؤخذ لتسند اليها أحقر انواع الخدمة وأقساها ، كي تقضي بقية حياتها في تعب وشقاء ! »

وهنا ضجت سالمة والجواري بالندب والعويل ، وجثا حسن وأمه بين يدي علي بك ، وهما بتقبيل قدميه ، وهما يستغيثان به ويتضرعان اليه ان يرثي لحالهما ويشفق عليهما من ذلك المصير الرهيب ، لانهما لا ذنب لهما في فرار السيد عبد الرحمن من المعسكر . فلم يكن من علي بك الا ان نظر اليهما وعلى فمه ابتسامة التشفي والغبطة بالانتقام ، ثم أعرض بوجهه المخيف عنهما ، وأمر أعوانه بأن ينفذوا ما امر به . فبادروا الى تنفيذه في الحال .

- ٥ -

الحرب بين روسيا وتركيا

خرجت الحملة التي أعدها علي بك الكبير من القلعة ، يتقدمهـــا البكوات أمراء المماليك على جيادهم المطهمة وهم في أزيائهم الفخمة . وعلى رأسهم محمد بك ابو الذهب قائد الحملة وصهر علي بك . وخلف هؤلاء فرسان المماليك الجنود بأسلحتهم الكاملة . وعددهم حوالـــي خمسة آلاف ، وفي ركاب كل منهم تابعان يرتديان السراويل القصيرة، وفي يد كل منهما عصا . ووراءهم جموع غفيرة من الجنود غير النظاميين بين مصريين وأتراك وهنود وشوام وسودانيين وأحباش ويمنيين وغيرهم من مختلف الاجناس والالوان ، تتبعهم أرتال من الجمال والبغال والحمير تحمل المؤن والذخائر والمدافع والخيام .

وضمت الحملة غير هؤلاء جميعا حوالي الفين من السراجين الذين يقومون بتدبير شؤون خيل البكوات المماليك ، كما ضمت مئات من باعة الاطعمة والطبالين والزمارين ، والمرتزقة .

وودعها علي بك باحتفال ليلي كبير ، دعي اليه كبراء البلاد وعلماؤها، وعرضها فيه امامهم بين دق الطبول والنفخ في الابواق ، واضاءة المشاعل، وما الى ذلك من ضروب الزينة والتكريم .

وأمضت الحملة بقية ليلتها في منطقة المطربة بالقرب من مسلتهـــا الاثرية المشهورة . ثم استأنفت سيرها بعد الفجر بقليل ، ومـــا زالت سائرة بمعداتها وأحمالها بين حل وترحال ، حتى بلغت مدينة الصالحية، فأمر محمد ابو الذهب بك بالاستراحة هناك يومين .

وكان السيد عبد الرحمن منذ خروج الحملة من حدود القاهرة لا

يفتأ يفكر في الوسيلة التي تكفل خلاصه منها ، وقد رأى في عدم انتظام الجند الذين يسير معهم فيها ما قوي أمله في ذلك الخلاص • فلما حطت الحملة رحالها في الصالحية وجد الفرصة سانحة لتنفيذ ما اعتزمه ، انتظر حتى انتصفت الليلة الثانية للحملة هناك وأوى زملاؤه في الخيمة الـى فراشهم بعد ان امضوا السهرة في ضجة وصخب ، ثم تسلل خارجا من المعسكر وظلام الليل يستره • فلما جاوزه دون ان يشعر احد به ، تنفس الصعداء وشعر بأن حملا ثقيلا قد أزيح عن كاهله • ثم انطلق في الطريق الذي جاء منه مع الحملة حتى بلغ حظيرة مهجورة كان اصحابها قد أخلوها خوفا من ان ينهب الجند دوابهم وماشيتهم ، فلجأ اليها بما يحمل من متاع وزاد ، وبقي فيها خائفا يترقب حتى سمع أذان الفجر ، ثم تلاه صخب الجند وضجتهم استعدادا للرحيل ، فاشتد خفقان قلبه مخافة ان ينكشف امر فراره ، ولم يعاوده الاطمئنان الا بعد ان اخذت ضجة الحملة تخفت وتتضاءل حتى لم يعد يصل الى سمعه المرهف شيء منها • فغادر مخبأه ومشى على حذر في عكس الاتجاه الذي سارت فيه ، حتى وصل الى احد مضارب الاعراب في تلك المنطقة ، فاشترى منهم هجينا ركبها وجعل في رحله عليها ما يكفيه اياما من الزاد والماء ، ثم انطلق بها قاصدا بلـدة العريش حيث اقام بها بضعة ايام حتى علم بأن قافلة ستخرج من هناك قاصدة عكا في اليوم التالي فاندمج فيها راكبا هجينه •

* * *

وصلت القافلة وفيها السيد عبد الرحمن الى عكا ، فأخذ يبحث عن منزل يقيم به في انتظار وصول أسرته وفيما هو في ذلك علم ان حاكـم المدينة واسمه الشيخ ضاهر العمري متحالف مع علي بك وقد تعاهدا على الخروج من طاعة الدولة العلية • فخشي ان هو بقي في عكا ان يقبض

عليه الشيخ ضاهر ويعيده الى حليفه علي بك في مصر . ولم تكن عكا اذ ذاك سوى قلعة كبيرة محكمة التحصين وسكانها قليلون اكثرهم من حاميتها . ولم يكن لديه علم بأن امر فراره قد انكشف وبلغ الى علي بك في مصر فكان من أمره مع ولده وزوجته وسائر اهل منزله ما كان .

واستقر رأيه اخيرا على ان يبقى في عكا متنكرا في زي المغاربة الذين يمارسون الطب الروحاني والتنجيم وكتابة الاحجبة والتعاويذ . وبقي على تلك الحال اشهرا ، وهو يتفقد القادمين الى المدينة برا وبحرا عسى ان تكون أسرته بينهم . ولكنها لم تأت ، ولم يقف على اي نبأ عنها.

وفي ذات يوم ، خرج الى الميناء كعادته يترقب القادمين اليه . فاذا بسفن شراعية كبيرة يبدو من هيئتها انها سفن حربية قد ملأت الميناء ، وعلم ممن لقبهم من اهل المدينة هناك ان الملكة كاترينة قيصرة الروس هي التي ارسلت هذه السفن للتجول في البحر الابيض المتوسط وتقديم المساعدة لعلي بك في مصر والشيخ ضاهر في عكا تشجيعا لهم على نبذ طاعة الدولة العلية والخروج عليها ، نظرا الى انها في حرب مع روسيا. فعاد الى الخان الذي يقيم به وهو يفكر في وسيلة مأمونة تمكنه من الرجوع الى مصر والوقوف على ما أخر قدوم أسرته اليه حسب الاتفاق.

وفي صباح اليوم التالي توجه الى سوق المدينة لشراء ما يحتاج اليه في رحلته الى مصر . فاذا بجماعة من الجنود الروس الذين رآهم بالامس في السفن القادمة الى الميناء قد ملأوا السوق ، وهم جميعا يرتدون السراويل الافرنجية والواسعة ، وعلى رؤوسهم قبعات عالية من الفرو وما يشبهه ، ومعهم اسلحتهم من البنادق والمسدسات والخناجر . فهاب منظرهم لضخامة أجسامهم وارتفاع هاماتهم واكتناز وجوههم . وأراد التحول من طريقهم ، لكنهم سرعان ما التفوا حوله مبدين دهشتهم من زيه المغربي المخالف لازياء اهل المدينة ، وكلمه بعضهم بلغته الروسية فلم

يفهم كلامه • ثم جاءه رجل كان بينهم يرتدي ملابس الافرنج المدنيـــة فكلمه بالعربية قائلا : «لا بأس عليك منهم ، فهم قد أعجبهم زيـــك ويريدون معرفة ما تبيعه مما تحمله في جرابك» •

فقال له : «ليس في الجراب ما يباع ، ولكن فيه كتبا سحرية أستعين بها على قراءة الطوالع ومعرفة ما يخبئه المستقبل ، وهذه صناعتي التي ورثتها عن آبائي وأجدادي» •

وكان الترجمان من اهل قبرص ، وسمع بالمغاربة الذين يزاولـــون التنجيم والطب الروحاني وضرب الرمل وما الى ذلك • فأخبر الجنـــود الروسيين بذلك • وشد ما كانت دهشتهم ، ثم اعربوا للترجمان عـــن رغبتهم في مشاهدة شيء من السحر الذي يقوم به هذا المغربي ، فنقل اليه رغبتهم • وسرعان ما جلس السيد عبد الرحمن وأخرج من جرابه اوراقا وجلودا مختلفة الالوان والاحجام نشرها امامه وفي بعضها رسوم غريبة ، كما اخرج صرة بها بعض الرمل وفتحها ثم اخذ يخط بأناملـــه رسوما وأشكالا مختلفة على الرمل • وأعقب ذلك بأن اخرج من منطقته دواة نحاسية مستطيلة تناول قلما من خزانة متصلة بها ، وغمس طرفه في الدواة ثم كتب به كلمات بلغة غير معروفة على ورقة بيضاء في حجـــم الكف ، متظاهرا بأنه يكتب ما علمه من اوراقه ورمله • وأخيرا رفع وجهه والتفت الى الترجمان وقال : «اذا صح ما علمته بوساطة العلوم التـــي حذقت اسرارها بالوراثة والرياضة الروحية ، فهؤلاء أتباع ملكة عظيمة تحكم بلادا بعيدة واسعة ، وسيكتب لها النصر بوساطتهم على عـــدو خطير لها » •

فأعجب الترجمان القبرصي بهذا الجواب وعده دليلا على حذق المنجم وبراعته ، وما كاد ينقله الى البحارة الروسيين حتى كانوا أشد اعجابا به ، ثم أجزلوا مكافأة السيد عبد لرحمن ورغبوا اليه بوساطة الترجمان ان

يصحبهم الى سفنهم الراسية في الميناء ليطلع زملاؤهم من الضبـــاط والجنود على غرائب علمه وفنه . فوعد بأن يوافيهم الى الميناء في اليوم التالي ومعه بقية الادوات اللازمة له . ثم غادر السوق عائدا الى الخان وفي عزمه ان يحتال للبقاء في تلك السفن حتى تقلع وتصل الى احـــد السواحل المصرية التي تعتزم السير اليها ، فينزل هناك ، ويسهل عليـــه الذهاب الى القاهرة لمعرفة ما تم في امر اسرته .

وفي صباح اليوم التالي غادر الخان ولم يترك فيه من امتعته الا ما ليس في حاجة اليه . ثم اخذ طريقه الى الميناء ، فما كاد يبلغه حتى بصر به بعض الجنود الذين لقيهم في السوق فعرفوه بزيه المغربي والجـراب الذي يحمله على كتفه ، فنادوه وصعدوا به الى سفينة الاميرال أورلوف قائد أسطولهم . وقدموه له ولمن معه من الضباط فكان سرورهم عظيما بما تنبأ به لهم من الامور العامة والخاصة ، وما زال هناك موضع اكرام الضباط والجنود حتى اعتزم الاسطول الرحيل ، فرغبوا اليه في البقاء معهم لينفعهم بعلمه وفنه ، فقبل على ان يتركوه ينزل بأي مدينة يمرون عليها .

* * *

اقلعت الحماة الروسية من ميناء عكا في جو هادىء جميل ، فمضت سفنها تشق عباب البحر باسطة أشرعتها ، ووقف السيد عبد الرحمن في زيه المغربي على ظهر السفينة التي ركب فيها يتأمل الساحل السوري حينا، والافق الممتد على مدى النظر من الجهة الاخرى حينا ، ثم يطلق لفكره العنان فيتخيل انه وصل الى داره في القاهرة ولقي ولده وزوجته فلـم يعرفاه اول الامر لتنكره في ذلك الزي الغريب ، ثم ما كادا يعرفانه حتى غمرهما السرور مثله ، وراحوا جميعا يبكون من فرط فرحتهم باللقاء بعد

طول الغياب .

على انه كان لا يلبث ان يتذكر تأخرهما عن موافاته في عكا ؛ فتتقاذفه الهواجس ، ويكاد قلبه يثب من صدره خشية ان يكونا قد أصيبا بسوء. ثم تنهل الدموع من عينيه على غير ارادته فيسارع الى مسحها بنديله . مستعينا على بلوغ غايته بالتزام الكتمان .

وبعد خمسة ايام ، كانت سفن الاسطول تسير خلالها مجتمعة حينا. ومتفرقة حينا اخر ، لاحت سواحل مصر من بعيد . فوقف السيد عبد الرحمن على حافة السفينة التي هو فيها يتشوف اليها وقلبه شديد الخفقان ؛ وود لو ان جناحين يطير بهما الى القاهرة لرؤية ولده وزوجته. وخطر بباله انهما قد يكونان في هذا الوقت في طريقهما الى عكا حيث تواعدوا على اللقاء ، فندم على تعجله الرجوع الى مصر ؛ لكنه تجلد وصبر حتى يصل ويقف على الحقيقة .

وحانت منه التفاتة الى السفينة القريبة من السفينة التي يركب فيها. فوجد على ظهرها جنودا من الارناءوط ــ الالبانيين ــ وقد عرفهم بأزيائهم التي يرتدي مثلها مواطنوهم في مصر ، وهي مؤلفة من القباء (القفطان) الابيض القصير ، ويسمونه (التنورة) ، وسيقانهم مكسوة بالجلد ، وعلى أكتافهم عباءات قصيرة ؛ وفوق رؤوسهم طرابيش طويلة مثنية الى الخلف وتتدلى منها (أزرار) طويلة .

فعجب من وجود هؤلاء بين الاسطول الروسي . ثم علم من الترجمان القبرصي ان الاسطول يضم حوالي اربعة آلاف منهم ، جيء بهم لاستخدامهم في الحرب البرية اذا اقتضى الامر ذلك .

وبعد قليل وصلت السفن الى ميناء دمياط وقد طوى البحارة أشرعتها استعدادا لرسوها هناك . وشاهد السيد عبد الرحمن أفواجا من الدمياطيين على الساحل يتطلعون الى السفن الغريبة القادمة في دهشة

واضطراب • ثم ما كادت السفن تلقي مراسيها ، حتى جاء كتخدا سردار المدينة (وكيل المحافظ) لتحية اميرال الاسطول ، بالنيابة عن علي بك ، وابداء الاستعداد لمده بما يحتاج اليه من المؤن والماء وغيرهما من المعدات• وعقب انصراف الكتخدا ، ذهب السيد عبد الرحمن الى الاميرال فقبل يديه مودعا مستأذنا في النزول الى البر ، فأذن له ومنحه مكافأة اخرى، كما منحه مثلها كثيرون من ضباط الاسطول وجنوده •

- ٦ -

الست نفيسة المملوكية

اخذ أعوان علي بك حسنا من القلعة على مشهد من امه وهـــم يضربونه ويسبونه ، وساروا به الى مصر العتيقة لاغراقه في النيل هناك تنفيذا لامر مولاهم • فلم تطق المسكينة صبرا على رؤية وحيدها يساق الى ذلك المصير الرهيب ، وأغمي عليها بعد ن قطعت شعرها وشقت ثوبها وجرحت خديها وعينيها من شدة اللطم والعويل • فحملها بعض الجنود ومضوا بها الى قصر علي بك عند بركة الازبكية ، حيث سلموها لقيمة القصر ، وأبلغوها امر علي بك بأن تلحق بالجواري الخادمات •

وكانت تلك البركة حينذاك تشغل مكان حديقة الازبكية وما يحف بها من الابنية الان ، فكان يحدها من الشرق حارة النصارى ، ومن الغرب بساتين وغياض هي التي صارت حي الاسماعيلية فيما بعد ، ومن الجنوب منطقة المقس حيث يقع الان حي التوفيقية وما بعده ، ومن الشمال منطقة

العشماوي حيث محافظة القاهرة • وهناك كان يقوم قصر علي بك الكبير•

وكانت المياه تأتي البركة من النيل عبر منطقة المقس السالفة الذكر ، وتزداد في ايام الفيضان ، مارة بقنطرة يقال لها قنطرة الدكة ما زال مكانها معروفا حتى الان • فتنعكس على تلك المياه أضواء القصور المشيدة حول البركة لسكنى الامراء والاعيان ، وتكسبها جمال رونق وحسن منظر وبهاء ، ولاسيما في ليالي الصيف والخريف اذ يطيب السهر والسمر في تلك القصور وتزداد انوارها ، فتنعكس في الابداع •

ولما افاقت سالمة من اغمائها . ووجدت نفسها بين عشرات من جواري الخدمة بالقصر ، تذكرت ما نزل بها من الفواجع والنكبات فعادت الى البكاء . متضرعة الى الله ان يعجل بموتها كي تلحق بوحيدها الذي اخذوه ليغرقوه في النيل • وعبثا حاول الجواري تعزيتها وتوصيتها بالصبر في محنتها ، فأمضت النهار دون ان تذوق شيئا من الطعام والشراب ولم تنقطع عن الندب والعويل ، غير مبالية ما يتهددها بسبب ذلك من التعذيب والامعان في التشفي والانتقام •

وكان لعلي بك في ذلك القصر زوجة رائعة الجمال اسمها نفيسة ، وقد اشتهرت بكمال العقل وحسن الرأي ، والبر والرحمة بالفقراء والضعفاء • (وهي التي تزوجها مراد بك فيما بعد وبقيت حية الى ما بعد الحملة الفرنسية ، وأشارت الصحف الافرنجية بمكانتها ومبراتها ، ولاسيما حمايتها لكثير من الافرنج وايواءهم في دارها خلال الاضطرابات) •

فلما سمعت بقصة سالمة ، ارسلت تدعوها الى مقابلتها في احدى حجراتها الخاصة بالقصر ، وأحسنت استقبالها ، ثم اشارت اليها بالجلوس على وسادة بجانبها ، وقالت لها : «علمت انك ممتنعة عن الاكل مستغرقة في الحزن ، وأنت فيما ارى سيدة عاقلة مؤمنة ، فكيف تلقي بنفسك الى

الهلاك بالاستسلام للحزن واليأس ؟»

فبقيت سالمة ساكتة مطرقة والدموع تنحدر مـــن عينيها ، وأدركت نفيسة ان المسكينة لا تقوى على التجلد . فازدادت حنوا عليها ودنت منها ومرت بيدها على رأسها مترفقة وقالت لها : «اصبري يا أختاه فالصبر مفتاح الفرج والله لا يضيع أجر الصابرين» .

فتنهدت سالمة تنهدا عميقا ، ومسحت دموعها وقالت : «من لي بالصبر يا سيدتي وقد اخذوا ولدي الوحيد من بين يدي ليلقوا به في النيل ، ومن قبل ذلك اخذوا أباه الى الحرب ، فهرب وهام على وجهه في الطرقات ولا ادري أحي هو ام ميت . ولو انه بقي على قيد الحياة فلن يتورعوا عن الحاقه بولدنا دون رحمة ولا اشفاق !» قالت ذلك وعادت للبكاء .

فتأثرت الست نفيسة ولم تتمالك نفسها عن البكاء معها . ثم اخذت تعزيها وتحاول تخفيف مصائبها والترفيه عنها بما جبلت عليه من رقـــة العاطفة وطيبة القلب وحب الخير .

ولم يسع سالمة رغم فداحة خطبها الا ان تستأنس بلطف هذه السيدة ونبلها وسمو خلقها ، وهمت بيديها لتقبلهما شاكرة ، فلم تمكنها من ذلك وقالت لها : «هذا أقل ما يجب يا أختي ، واني أدعو الله ان يوفقني الى ما يخفف كربك ، فهو مفرج الكروب ورحمته وسعت كل شيء» .

فقالت سالمة : «جزاك الله خيرا يا سيدتي ولا اراك مكروها في عزيز لديك» . وعادت الى اطراقها وقد اخذها العجب من ان تكون مثل هذه السيدة الفاضلة الكاملة الحنون قرينة لجبار عنيد غضوب مثل علي بك ولكنها قالت في نفسها «كل شيء نصيب ولله في خلقه شؤون» .

وكانت الست نفيسة في ذلك الوقت مرتدية ملابس البيت المؤلفة من ثوب حريري رقيق مشقوق من اعلى الصدر ، وفوقه قباء من المخمـــل مشدود الى خصرها بمنطقة من الحرير الدمشقي الثمين ، وفوقه معطف

فضفاض واسع الكمين يتدلى منهما طرفا كمي قميصها الشفاف ، وقد تحلت بعقود وأساور من مختلف اللآلىء والجواهر وتدلى من أذنيها قرطان هما جوهرتان كبيرتان . وهي مكتنزة الجسم ناصعة البياض مع حمرة خفيفة واسعة العينين رقيقة الشفتين مستقيمة الانف وضاحة الجبين ، ذهبية الشعر قد ضفرته ضفيرتين ارسلت احداهما على صدرها والاخرى على ظهرها ، وغطت اعلاه باكليل مرصع ، فبدت غاية في الجمال والجلال .

ولاح لسالمة بصيص من الامل في انقاذ ابنها من الموتة الشنيعة التي حكم عليه بها علي بك ، فهمت بأن تترامى على قدمي الست نفيسة وتتضرع اليها ان تتوسط لتحقق لها هذا الامل . ولكنها رأتها تنهض من مجلسها وتصفق منادية جاريتها الخاصة (منورة) فنهضت سالمة ووقفت بين يديها ساكتة حتى جاءت الجارية ، وتلقت من سيدتها كلمات أسرت بها اليها ، ثم انصرفت حانية رأسها سمعا وطاعة .

* * *

كانت الست نفيسة قد علمت بما أمر به زوجها علي بك من الحاق سالمة بخدمة القصر والقاء ولدها في النيل ، فاستنكرت الامر فيما بينها وبين نفسها . ثم ازداد تأثرها حين علمت بامتناعها عن الطعام والشراب وانقطاعها للبكاء والعويل ، فلما قابلتها بعد ذلك ورأت بنفسها ما هي عليه من سقم واكتئاب وزهد في الحياة ، حدثتها نفسها بأن ترسل من عندها رسولا الى الجند الذين كلفوا اغراق ابنها ، آمرة اياهم بالعدول عن ذلك ، ولكنها رأت الانتظار حتى يعود علي بك الى القصر وتتوسط لديه في الامر ، مخافة ان يغضب لاقدامها على ذلك دون اذنه ، وقد يؤدي به الغضب الى الانتقام منها بذبحها او القائها في النيل ، او طردها من

القصر مطلقة مهانة على اهون تقدير .

ولم يكن لديها شك في انه يحبها ويؤثرها على كل نسائه وجواريه، ولكنها كانت ـــ مع ذلك ـــ لا تأمن حدة غضبه ، وتعلم انه سريـــع الانتقام لا يطيق ان يخالف احد اي امر يصدره . هذا الى علمها بـأن المماليك جميعا لا يرعون حرمة النساء ولا شيء عندهم أسهل من الطلاق.

على انها خشيت كذلك ان تتأخر عودته الى القصر فتضيع فرصـة انقاذ الفتى البريء المظلوم وتذهب نفس امه المسكينة حسرات عليه ، فنادت خادمتها الخاصة الامينة (منورة) وأسرت اليها ان تـسارع الـــى ارسال من يلحق بالجنود ويبلغهم رغبتها في العفو عن الفتى واطـــلاق سراحه ومعاونته على الفرار من مصر الى سوريا او غيرها من البـــلاد المجاورة في الحال .

وفيما هي تتحدث مع سالمة عقب انصراف (منورة) وتكرر النصح لها بالصبر وألا تيأس من الفرج بعد الشدة ، وصل الى سمعهما وقع أقدام تقترب من الغرفة ، فأجفلت الست نفيسة وامتقع لون وجهها . وطالعت سالمة في نظراتها وحركاتها معاني القلق والاضطراب والخوف، فأدركت ان القادم علي بك ، وان زوجته الرحيمة الطيبة القلب تخشى غضبـــه لسماحها لها بدخول غرفتها . فهمت بالخروج تفاديا لشره ، لكنها ما كادت تصل الى باب الغرفة حتى دخل منه علي بك ، فلم تتمالك قواها لهول المفاجأة وسقطت على الارض مغمي عليها .

وعرفها علي بك حين وقعت عينه عليها ، فحمي غضبه والتفت الـى زوجته التي خفت الى ملاقاته محاولة ملاطفته وقال : «ما هذا يا نفيسة؟. ما الذي جاء بهذه الخائنة الى هنا وقد امرت بأن تسند اليها أحقر انواع الخدمة ؟ »

فتكلفت الابتسام ، وتجلدت لتخفي اضطرابها ، وقالت له : «انها يا

مولاي لم تأت الا بطلب مني ، اذ سمعت بأنها كادت تقتل نفسها حزنا على ما آل اليه امرها ؛ وامتنعت عن تناول الطعام ؛ فدعوتها لاخاطبها في ذلك » .

فنظر اليها شزرا ، وقال محتدا : «كادت تقتل نفسها ؟.. ما شاء الله !. لعلها اشتاقت الى ولدها المدلل الجبان ؟. حسنا . سأرسلها اليه الان ! »

ثم اشار الى بعض الجواري ان يخرجن سالمة من الغرفة ويسلمنها الى بعض حرس القصر ليلقوا بها في النيل ، فسارعن الى تنفيذ الامر .

* * *

افاقت سالمة من اغمائها ، فوجدت نفسها محمولة على أيدي بعض جواري القصر الحبشيات والتركيات ، وما علمت بما أمر به علي بك حتى صاحت قائلة : «مرحبا بالموت ما أعذبه وأحلاه ؛ ولاسيما انه سيقربني من ولدي وفلذة كبدي العزيز» .

وتذكرت ما لقيته من لطف الست نفيسة وحنانها ولطف مواساتها ؛ فخشيت ان تكون قد نالها سوء بسببها ، وسألت الجواري في ذلك ؛ فلما اطمأنت الى نجاة السيدة الفاضلة من شر غضب زوجها ، تنهدت تنهد الارتياح ، وقالت للجواري وهن ينظرن اليها راثيات لحالها باكيات: «أشكركن يا أخواتي العزيزات على عواطفكن الرقيقة النبيلة ، وكل ما ارجوه الان ان تسرعن بي الى النيل حيث ينتظرني ولدي العزيز ، وأن تبلغن سيدتكن الكريمة اني لن انسى فضلها ونبلها حتى القى الله فأضرع اليه ان يجزل مكافأتها ويكتب لها السعادة في الدارين» .

وكان لكلامها اكبر الاثر في نفوس الجواري ، فلم يستطعن امساك دموعهن رثاء لحالها واعجابا بوفائها الدال على طيب عنصرها . فعرجن بها

الى احدى الغرف المخصصة لهن في القصر ، وجئن اليها ببعض الطعام راجيات منها ان تتناوله فاعتذرت من عدم استطاعتها اجابة طلبهن، وكررت لهن الشكر .

وأخيرا مضت احداهن الى قيم القصر : فأبلغته امر علي بك بالفاء سالمة في النيل ؛ وروت له قصتها باختصار . فلما رأت التأثر باديا في وجهه ، انتهزت هذه الفرصة ، وتضرعت اليه ان يعمل على انقاذ تلك المسكينة المظلومة ، ولاسيما ان الست نفيسة تعطف عليها وترثي لما اصابها في ولدها وزوجها ومالها ، ولا شك في انها تسر بانقاذها من ذلك المصير . فوعدها ببذل جهده في هذا السبيل ، ثم نادى بعض الحرس ممن يثق بهم ، واتفق معهم على التظاهر بأخذ سالمة من القصر لالقائها في النيل خارج القاهرة ؛ ثم اطلاق سراحها هناك والنصح لها بالفرار الى الريف او الاختفاء في اي مكان منعزل ؛ وألا يشعروا بذلك اي انسان.

فقالوا : «سمعا وطاعة» . ثم خرجوا بها من القصر ، وهي لا تكاد تقوى على السير لفرط ضعفها وحزنها ، ولا تعلم شيئا مما اتفق عليه قيم القصر مع اولئك الجنود .

ولما بلغوا مصر العتيقة ، كان الليل قد سدل نقابه ، ولكن سالمة ادركت انهم يسيرون بحذاء النيل هناك ، من انعكاس ضوء النجوم على صفحة الماء ، فتذكرت ابنها ولم تملك عواطفها فانفجرت باكية . وكانت قد بقيت صامتة مطرقة طول الطريق ، فحسب الجنود انها تبكي خوفا من اغراقها تنفيذا لامر علي بك . وهمس كبيرهم في أذنها قائلا : «لا تبكي يا سيدتي ولا تخافي ، فاننا لن نمسك بأي سوء ، وسنطلق سراحك عما قليل لتمضي الى اي مكان شئت وتختفي فيه» .

فصاحت سالمة قائلة : «تطلقون سراحي ؟.. من قال لكم هذا ؟.. كلا يا سيدي لست راغبة في الحياة ، فهيا عجلوا بموتي ولكم الشكر !»

فبغت الجنود ، وعجبوا لايثارها الموت ورغبتها في التعجيل به ، بدلا من ان تطير فرحا بالنجاة ، وعاد كبيرهم فقال لها : «لعلك لا تصدقين اننا سنطلق سراحك ولا نغرقك في النيل ؟»

فقالت : «سواء عندي أكنتم صادقين ام ساخرين ، وليس أحب الي من ان أغرق الان لالحق بولدي الذي أغرقتموه هنا قبلي ولم ترحموا شبابه ، ولا اتقيتم الله في قتله ظلما وعدوانا بلا اي ذنب جناه !»

فأدرك الجنود انها أم الفتى الذي سمعوا بأن علي بك أمر باغراقه في الصباح ، وازدادوا رأفة بها ورثاء لمصابها . ثم اخذوا في تعزيتها متنصلين من تبعة اغراق ابنها ، وأكدوا لها انهم سيطلقون سراحها ويعاونونها على الاختفاء تنفيذا لرغبة الست نفيسة ، فلما سمعت ذلك صدقتهم وازدادت تقديرا لفضل تلك السيدة البارة الكريمة الرحيمة . لكنها قالت لهم : «جزاها الله وجزاكم احسن الجزاء ، غير اني لا أريد الحياة بعد قتل ولدي وفقد ابيه ، فأرجو منكم ان تقتلوني ايضا وتريحوني من العذاب الذي انا فيه !»



ما زال الجنود سائرين بسالمة وهم يحاولون تعزيتها واقناعها بالتزام الصبر والرضوخ لمشيئة القدر ، حتى وقفوا بها امام بناء هناك في مصر العتيقة ، ثم مضى كبيرهم الى باب صغير مصفح بالحديد ، يوصل اليه من ممر منحدر ، فطرقه طرقا عنيفا متواليا ، أعقبه صوت ضعيف مرتجف منبعث من الداخل يسأل : «من الطارق ؟» . وما كادوا يجيبونه بأنهم من الجنود حتى سارع الى فتح الباب وفي يده مصباح زيتي خافت الضوء، فدخلوا وسالمة وراءهم ، وهي تعجب من امر ذلك المكان ، وبابه الحديدي الضيق ذي المفتاح الخشبي الغليظ ، وما زالوا سائرين في

زقاق ضيق على جانبيه أزقة اخرى مثله ، والبواب الشيخ العجـــوز يتقدمهم بمصباحه ، حتى بلغوا بابا صغيرا اخر طرقوه ففتح لهم ودخلوا وهي معهم ، ثم سمعت كبير الجنود يسأل البواب الجديد : «ايـــــن الرئيس ؟» انا نريد مقابلته في امر خاص» . فمضى البواب وغاب قليلا ثم عاد ومعه رجل في مثل لباسه وسنه . وبعد ان تبادل الرجل مع كبير الجنود بضع كلمات لم تتبينها ولكنها ادركت من اشارتهما اليها انهـــا خاصة بها ، عاد الرجل من حيث اتى ، ثم أقبل بعد حين ومعه سيدة استقبلتها مرحبة ، ثم قادتها الى حجرة صغيرة خالية الا من فراش بسيط ومصباح زيتي صغير ، وأشارت اليها ان تستريح فيها حتى الصباح . وبعد ان جاءتها ببعض الطعام واناء به ماء ، تركتها راجية لها نوما طيبا هانئا ، وأغلقت باب الحجرة وانصرفت . فبقيت سالمة ساعة تتقاذفهـــا الهواجس والافكار ، ولم تجد في نفسها قابلية لتناول الطعام رغم انها لم تذق شيئا منه منذ وقت طويل ، فاكتفت بجرعة من الماء ، وتمـــددت بثيابها على الفراش الموضوع في الحجرة ، فما لبثت قليلا حتى اخذهـــا النعاس ، ولم تستيقظ لفرط ما قاسته من الجهد والحزن وعديد المفاجآت الا قرب ظهر اليوم التالي .

ولم تكن هذه الحجرة الا احدى حجرات دير كنيسة مار جرجس ، ورهبانه جميعا من اليونانيين . ولليونان يومئذ امتيازات كثيرة في مصر لكثرة جاليتهم فيها ، ولحاجة المماليك اليهم في الطب وتجارة الرقيـــق وغيره ، وصنع السفن وقيادتها . ولم يكن بالدير راهبات سوى راهبة جاءت من اليونان لتمضية بضعة اشهر في مصر ، هي التي استقبلت سالمة ومضت بها الى تلك الحجرة .

وبجانب هذا لدير تقوم أديار اخرى كثيرة للاقباط والاروام ، ومن بينها دير ابي سرجة ، ودير المعلقة ، ويحيط بها جميعا سور أشبه بأسوار

الحصون ، اذ كان ذلك البناء كله حصنا فيما مضى ، وفيه حاصر العرب أقباط مصر حين جاءوا لفتحها بقيادة عمرو بن العاص .

اما الجنود الذين جاءوا بسالمة ، فانصرفوا عائدين أدراجهم بعد ان أوصوا بها رئيس الدير خيرا ، وطلبوا اليه ان يبقيها في مأمن عنده لان حياتها مهددة بالخطر ، فلم يسعه الا القبول .

ولما وصلوا الى الباب الخارجي وجدوه مفتوحا ، والبواب ليس في مكانه هناك . فعلموا انه فر خوفا منهم كما فعل اكثر الرهبان الذين صادفوهم داخل البناء ، وأوجسوا خيفة من ان يكون احد هؤلاء قد ظن انهم آتون للنهب والسلب ، كما كان يحدث في ذلك الحين ، فذهب ليشكوهم الى المعلم ابراهيم الجوهري او المعلم رزق ، وهما يومئذ ملجأ القاصدين وذوي الحاجات من أقباط مصر ، لتوليهما الكتابة عند علي بك ، وحصولهما بسبب ذلك على كثير من سعة النفوذ والسلطان فضلا عن الثراء الوفير .

وكان ان تسلل الجنود خارجين من الباب ، ثم أغلقوه وراءهم وعادوا الى القصر دون ان يشعر احد من اهله بشيء مما قاموا به .

- ٧ -

الشيخ المجذوب

بقي السيد عبد الرحمن اياما في دمياط بعد وصوله اليها مع الاسطول الروسي ، ثم وجد سفينة نيلية تستعد للسفر منها الى القاهرة

حاملة مقادير كبيرة من الارز فاتفق مع اصحابها على ان يأخذوه معهم.
وفي الموعد المحدد لاقلاع السفينة كان قد صعد اليها بأمتعته وبينها طبل صغير وعصا مصبوغة ، وعدد من الاجراس الصغيرة وصرة بها قطع مختلف ألوانها من الملابس القديمة ، ثم اختار لنفسه مجلسا في احد جوانب السفينة وقبع فيه وبجانبه امتعته بعد ان خلع عنه الزي المغربي الذي كان متنكرا فيه ، معتزما التنكر في زي اخر .

وما اقلعت السفينة حتى انطلقت بها الريح في الاتجاه المطلوب ، وسر بذلك ملاحوها ، فاجتمعوا على ظهرها بعمائمهم الكبيرة المرسلة اطرافها على أقفيتهم ، وبسراويلهم الفضفاضة المشدودة على القدمين ، وأخذ بعضهم في الغناء بمصاحبة المزمار والنقر على الدفوف . كما اخذ بعضهم يتلهون بتسلق سارية الشراع او حمل الاثقال بينما التجار يتلهون بمشاهدة هؤلاء وهؤلاء او الاستمتاع بمناظر السفن الاخرى وما يحف بالشاطئين من زروع وأشجار وفلاحين يعملون في الحرث والري وغيرهما من اعمال الحقول .

اما السيد عبد الرحمن فكان في شغل عن ذلك كله بالتفكير في امر ولده وزوجته ، فتارة تحدثه نفسه بأنهما أصيبا بعد سفره بسوء على أيدي المماليك ، وتارة يخيل اليه انهما ذهبا الى عكا بعد مغادرته اياها . وأخيرا نهض ومضى الى حافة السفينة فتوضأ ثم عاد الى ركنه المختار فصلى ودعا الله ان يقيه وأسرته الضر ويجمع شملهم في أمان واطمئنان . ثم عكف على اعداد الزي الجديد الذي رأى ان يتنكر فيه بدلا من زيه المغربي ، فرقع جبته بالقطع الملونة الصغيرة ، وثبت فيها الاجراس الصغيرة والجلاجل ، ثم ارتداها واستعاض عن العمامة بطرطور طويل بعد ان نفش شعر رأسه وأرسله على وجهه فاختلط بلحيته وعلق الطبل الصغير على صدره . ثم نهض فغادر مكانهوالعصا الملونة في يده ، وأخذ يتجول

في انحاء السفينة وهو يقرع الطبل ، والاجراس والجلاجل تصلصل متأثرة بحركته ، فلم يبق على ظهر السفينة من لم يلفته منظره العجيب ، وراحوا جميعا يتسابقون الى التبرك به والاصغاء الى الكلمات المبهمة التي يتمتم بها ، اذ اعتقدوا انه من المجاذيب المكشوف عنهم الحجاب !

وما أتم السيد عبد الرحمن جولته الاولى حتى كان قد اطمأن الى اتقان تنكره . ثم استمر يقوم بمثل هذه الجولة على السفينة مرات في اليوم والتجار والبحارة يزدادون تيمنا به ويتنافسون في العمل على مرضاته . حتى رست السفينة في ميناء بولاق فغادرها وهو على تلك الهيئة . وانطلق يتجول في الاسواق والازقة متظاهرا بالانجذاب ؛ فلم تمض ساعة حتى كان يسير وخلفه جمهور كبير من الصبيان والمتعطلين والمارة على اختلافهم ، وهم بين ساخر منه ؛ ومتبرك به . ومـا زال سائرا حتى بلغ الحارة التي بها منزله ، فجلس ببابها متظاهرا بالرغبة في الاستراحة ؛ وهو انما يريد صرف الجمهور السائر خلفه ، ليتفرغ بعد ذلك لتفقد اهل منزله والوقوف على حقيقة حالهم .

ومر به احد الفقهاء ، فرثى لحاله وأمر الناس فانصرفوا عنه ، ثم مد يده اليه ببعض الدراهم فلم يقبلها ، وقال له متظاهرا بالبله والانجذاب: «لا حاجة بي الى دراهم ولا آخذها حتى لا تغضب امي وتضربني !»

فابتسم الفقيه واعتقد انه من اهل الصلاح والتقوى ، فطلب اليه ان يرافقه الى بيته ؛ فهز رأسه اشارة الرفض .

وعرض عليه الفقيه ان يأتيه ببعض الطعام ، فرفض ايضا . لكنه اشار اليه بوضع يده على فمه انه يريد ماء ، فانطلق الفقيه الى ابواب الحارة ، وجاءه من عنده بقلة ملأى بالماء ، فاكتفى برشفات منها وأعادها اليه ، ثم تظاهر بأنه يريد النوم ولكنه يخشى على طبله ان يخطفه الصبيان . فطلب الفقيه من البواب ان يخلي له مكانا بجانبه وراء الباب لينام فيه آمنا ؛

وبادر البواب باجابة الطلب وهو فرح فخور .

ومضت ساعات والسيد عبد الرحمن متظاهرا بالنوم خلف باب الحارة. وكلما سمع وقع أقدام خارجة او داخلة اختلس النظر نحو الباب لعل القادم ابنه او احد خدم المنزل . فلما لم يمر به احد منهم عاوده قلقه ؛ ولم يطق صبرا بعد ذلك ، فهب من مرقده فجأة ، وأخذ يقفز ويتمتم بكلمات غير مفهومة ، ثم هم بطبله فعلقه على صدره فوق مرقعته . وأحكم وضع طرطوره الطويل على رأسه ، وتناول عصاه الملونة . ومشى في الحارة وهو يقرع الطبل فيختلط دويه بصليل الاجراس والجلاجل التي في مرقعته . وما زال سائرا بهذه الحالة حتى وصل الى منزله وقد اوشكت الشمس ان تغرب ، فوجد الباب مغلقا ، وسمع اصواتا منبعثة من الداخل لا عهد له بها ؛ فاشتدت به الوساوس والهواجس ، وهم بطرق الباب لكنه آثر الانتظار بعض الوقت ؛ فجلس بقربه مستمرا في قرع طبله والصلصلة بأجراسه . وأهل الحارة يمرون به ضاحكين منه متيسنين بوجوده فيها وهم يحسبونه من المجاذيب اهل الكشف .

وبعد قليل . فتح الباب وخرج منه شيخ وقور عرف السيد عبد الرحمن انه زميل قديم له من التجار في وكالة الليمون ، وهم بأن يناديه ، فاذا بالتاجر يقصده من تلقاء نفسه ويحاول اعطاءه بعض الدراهم ، فرفض اخذها متظاهرا بالغضب ، وأفهمه بالاشارة انه في حاجة الى الطعام والنوم . فأخذ التاجر بيده وعاد به الى المنزل حيث أدخله حجرة الجلوس في الطابق الارضي ، وأمر الخادم بأن يأتيه بالطعام ويهيىء له منامة ، ثم استأذن في الخروج سائلا اياه ان يذكره بدعواته الطيبات . وانصرف بعد ان اوصى الخادم بالسهر على خدمة الشيخ المبارك وتلبية كل ما يطلبه .

* * *

ما كاد السيد عبد الرحمن يدخل منزله مع زميله التاجر الذي وجده ساكنا فيه حتى ادرك ان نظام المنزل قد تغير الى حد كبير ، ولم يجد في طريقه الى حجرة الجوس اي اثر لاحد من اهله او خدمه • فتسارعت دقات قلبه ، وكاد يجهش بالبكاء ، لكنه تجلد حتى لا يفتضح امره ، وصبر الى ان انصرف زميله التاجر ، ثم جاءه الخادم بالطعام ، فتظاهر بالغضب ، وأمر باعادته ، ثم هم بحمل طبله وعصاه وطرطوره • ورفع صوته قائلا وهو يتظاهر بأنه يحدث نفسه : «لا • لا • هذا مستحيل» •

فوجم الخادم ، وخشي ان يترك المجذوب يغادر المنزل فيغضب سيده، فاقترب من السيد عبد الرحمن وهم بتقبيل يده قائلا : «ما الذي اغضبك، اطلب ما شئت فاني في خدمتك» •

فقال له : «انا لا آكل طعاما ولا انام في منزل خلا من اصحابه» •

ففهم الخادم ان الشيخ المجذوب عرف بالالهام قصة الظلم الذي أوقعه المماليك بأصحاب المنزل الاولين ، فمال على يده وقبلها في خشوع واجلال وقال : «رحمهم الله يا سيدي ، ورحمنا جميعا من الظلم والاضطهاد» • ثم تضرع اليه ألا يغادر المنزل ، وأن يطلب الطعام الذي يريده فيحضره له في الحال ، حتى لا يغضب سيده ويطرده •

فتكلف السيد عبد الرحمن الضحك ساخرا وقال للخادم : «كيف يطردك ؟•• أهو الذي طرد من كانوا في المنزل من قبل ؟»

فقال الخادم : «كلا يا سيدي ، ان علي بك هو الذي طردهم ، وجردهم من املاكهم ، لان عميدهم خالف امره وهرب من الحملة التي ارسله فيها الى الحجاز» •

قال : «ألم تعلم اين ذهبوا بعد ذلك ؟»

فتنهد الخادم أسفا وحزنا وقال : «لم يكن للرجل الا ولد واحد ، اخذوه وأغرقوه في النيل !»

فأجفل السيد عبد الرحمن ، وخارت قواه فجأة . فجلس متهالكا وقد سقط الطرطور عن رأسه ، وانفجر باكيا . والخادم يعجب من امره ولا يعلم انه انما يبكي ولده الوحيد . ثم اعتدل في جلسته متجلدا وسأل الخادم : «وماذا صنعت المسكينة أم ذلك الغلام ؟»

فقال الخادم : «أمر علي بك بأخذها الى قصره لتعمل فيه مع الجواري الخادمات . وأحسب انها ما زالت هناك حتى الان» .

فشعر السيد عبد الرحمن بأن الارض تدور به ، ولم يعد يقوى على الكلام : فتظاهر بأنه رضي بالمبيت في المنزل وطلب من الخادم ترك الطعام في الحجرة ليأكله متى شاء . فقبل الخادم يده وخرج .

وما خلا السيد عبد الرحمن الى نفسه في الحجرة حتى أطلق لعينيه عنان البكاء : وأخذ يندب ولده وزوجته . وبقي كذلك وقد اغلق باب الحجرة من الداخل . حتى سمع أذان الفجر . ففتح باب الحجرة وأيقظ الخادم النائم امامه ، وأخبره بأنه يريد الخروج للصلاة في المسجد . فأوصله حتى الباب الخارجي وفتحه له ، ثم قبل يديه وودعه راجيا ان يتفضل بتشريف المنزل بزيارته من حين لاخر لتحل بركته على من فيه. فوعده بذلك وانصرف لا يلوي على شيء .

وما زال سائرا ووجهته قصر علي بك ، فبلغه وقد اشرقت الشمس وانعكست أشعتها على بركة الازبكية فبدا منظرها بديعا يجذب القلوب والابصار ، لكنه كان في شغل عن ذلك بما هو فيه مـــــن المصائب والنكبات . وما وقعت عليه أعين حرس القصر وخدمه حتى دعوه اليهم ملتمسين بركته ودعواته ، وحاول بعضهم نفحه ببعض المال . فرفض اخذه طبقا للخطة التي اتخذها لنفسه . فجاءوه بالطعام راجين منه ان يأكل منه اكراما لخاطرهم . فتناول قليلا منه . ثم اخذ يتردد اليهم اياما فيجد منهم الاكرام والاحترام ، وهو يتلطف ويحتال لاستطلاع ما تم في

امر زوجته ، حتى علم اخيرا بأن علي بك أمر بأن تلحق بولدها غرقا في النيل ، وان الجنود ساقوها من القصر الى مصر العتيقة ، حيث نفذوا ذلك الامر ، وكان هذا في مساء اليوم الذي أغرق فيه ولدها هناك !

* * *

ضاقت الدنيا كلها في وجه السيد عبد الرحمن ، بعد ان فشلت آماله وتحقق مصرع ولده وزوجته . ففكر في الانتحار تخلصا من حياتـــه الشقية المعذبة ، لكن نفسه التقية لم تطاوعه على ارتكاب هذه المعصية. فسلم امره لله ، واعتزم ان يقضي ما بقي من عمره هائما على وجهه ، وهو بملابس المجاذيب ، يسد رمقه بما يجود به عليه الناس من الطعام كلما جاع ، وينام في المكان الذي يتفق وجوده فيه حين يشعر بحاجـــــة الى النوم .

وبقي كذلك في القاهرة اسابيع ، حتى اصبحت شخصيته الجديدة معروفة في جميع أحيائها ، وأهلها كلهم يتيمنون بطلعته ويلتمسون بركته ودعواته . والسعيد منهم من يتاح له ان يقدم له طعامافيتناول قليــلا منه ، او يحظى بنومه بالقرب من منزله . اذ انهم علموا بالتجربة انه لا يقبل مالا من احد ، ولا ينام الا في الطريق !

وكثيرا ما كانت قدماه تقودانه الى شاطىء النيل في مصر العتيقة ؛ فيجلس هناك بالقرب من مينائها الذي ترسو فيه المراكب التجارية كما هو الشأن في ميناء بولاق . فاذا رآه التجار المجتمعون هناك تفاءلــوا بوجوده خيرا وتسابقوا الى خدمته التماسا لبركته . وفيهم كثيرون من زملائه في وكالة الليمون لكنهم كانوا لا يعرفونه لتغير هيئته ولعلمهم بأن زميلهم قد غادر البلاد المصرية كلها فرارا من ظلم المماليك . اما هو فكان يعرفهم وتذكره رؤيتهم ما كان فيه من نعمة سابقة ومكانة تجارية مرموقة،

فتتجدد احزانه وتهيج اشجانه ، ولا يعزيه الا ان يسرح بصره في النيل الممتد امامه متخيلا ان زوجته وولده لا يلبثان ان يخرجا اليه من أعماق النهر حيث القى بهما الجنود ، ويقضي الساعات الطوال مناجيا طيفيهما وهو يضحك تارة ويبكي تارة اخرى • ولا يزال كذلك حتى ينال منه التعب فيتمدد على الشاطىء متوسدا طبله محتضنا عصاه ويسلم عينيه للنوم حيث يستأنف تلك المناجاة فيما يراوده من الاحلام !

وفيما هو هناك ذات يوم وقد اخذته سنة من النوم ، اذا به يستيقظ على صوت رجل يناديه قائلا : «يا سيدي الشيخ • يا سيدي الشيخ» • فلما تطلع الى الرجل الذي يناديه وجده مرتديا جلبابا مهلهلا ، وعلى رأسه عمامة ملفوفة حول (لبدة) وعلى وجهه آثار الجهد والاعياء ، فأدرك انه من اهل الصعيد الذين يعملون في شحن البضائع ونقلها • وسأله عما يريد ، فقال الرجل : «سألتك بالله يا سيدي ان تقرأ الفاتحة وتدعو الله ان يجمعني بمن فرق بيني وبينهم» •

فتأثر السيد عبد الرحمن بما بدا من اللهفة والاسى في لهجة الرجل، وتذكر انه يشكو مثل شكاته • فجلس وأخذ في قراءة الفاتحة والدموع تنهمل من عينيه • فتشاءم الرجل وانتظر حتى فرغ من القراءة ثم سأله : «هل على الغائبين من بأس يا سيدي الشيخ ؟»

وخيل الى السيد عبد الرحمن ان صوت الرجل ليس جديدا عليه ، فمسح دموعه بطرف مرقعته وتفرس في وجهه فاذا هو علي خادمه الخاص• فعجب من ارتدائه ملابس اهل الصعيد ، ومن تغير هيئته الى حد كبير ، وهم بأن يناديه باسمه ، لكنه لم يتمالك عواطفه فانفجر باكيا •

وفهم علي ان بكاء الشيخ المجذوب دليل على انه ألهم ألا امل في عودة الغائبين الذين خاطبه في شأنهم ، فلم يتمالك عن البكاء هو الاخر، وقال له : «لماذا تبكي يا سيدي الشيخ ؟• اذا كنت قد تحققت ألا امل في

اجتماعي بمن فقدتهم فأخبرني» •

فأجابه وهو ما زال يبكي قائلا : «ان الموتى لا يعودون يا علي» • ثم نهض وهم به يعانقه وقد ازداد نشيجه وعلا نحيبه • ولما وجده ذاهلا لم يعرفه بعد ، أمسك بيده وأجلسه بجانبه وقال : «ألم تعرفني بعد يا علي ؟•• ان حسنا ووالدته قد أغرقا هنا في هذا النيل» •

وهنا تحقق علي ان الشيخ المجذوب ليس سوى سيده عبد الرحمن نفسه ، فارتمى عليه وأخذ في تقبيل يديه وكتفيه باكيا معولا وهو يقول: «سيدي عبد الرحمن •• سيدي عبد الرحمن» •

فطلب منه ألا يرفع صوته لئلا يفطن احد الى امرهما ، ثم نهضا وانطلقا الى مكان منعزل بعد الميناء ، وجلسا يتحادثان ، فروى علي انه سافر الى الريف بأمر سيده حسن ووالدته حيث باع الارض التي كانت لسيده عبد الرحمن هناك ، واستغرق ذلك اسابيع ، وفيما هو في طريق عودته الى القاهرة للسفر معهما الى عكا طبقا لما تعاهدوا عليه : علم بأن المماليك اعتقلوهما واستولوا على المنزل وكل ما فيه ، فتنكر في زي اهل الصعيد وجاء الى القاهرة ليرى ما تم في امرهما • وفيما هو خارج من الميناء بعد مغادرته السفينة التي جاء فيها ، سمع التجار والملاحين يتحدثون عن شيخ مجذوب صاحب كرامات مشهورة ، وعلم منهم ان هذا الشيخ موجود بالقرب من الميناء على شاطىء النيل ، فوافاه هناك ليتبرك به ويسأله في امر سيده حسن ووالدته لعله يكشف له عما انتهى اليه امرهما •

فأخبره السيد عبد الرحمن بما كان من اخذهما الى مجلس علي بك في القلعة ، ثم اغراقهما بأمره في النيل بعد الاهانة والتعذيب ، ثم قال له: «والآن لم يعد يحلو لي العيش بعد ان فقدت اهلي ومالي ، هذا الى اني لا آمن اذا بقيت في القاهرة ان ينكشف امري • ولو كنت أعلم الغيب

لبقيت في حملة الحجاز ، او بقيت في عكا ولم أرجع الى هذه البلاد التي عاث فيها المماليك الفساد ، ولم يتقوا الله في العباد» .

وأمضيا ساعات وهما يتبادلان الحديث ويبكيان ، ثم قال علي : «ارى ان نبقى في القاهرة متنكرين كما نحن الان ، وما دام كل منا لم يعرف الاخر اول الامر ، فلن يستطيع احد من المماليك وأعوانهم كشف حقيقة امرنا ، وهذا هو المال الذي بعت به ارضك التي كانت في الريف، فتصرف فيه كما شئت» . قال هذا وأخرج من ثيابه صرة فيها ذلك المال ومد بها يده الى سيده . فرفض هذا اخذها وقال : «ما حاجتي الى المال يا علي ؟.. انني لولا خوف الله لالقيت بنفسي في قاع النيل لالحق بحسن ووالدته» .

فقال علي : «معاذ الله يا سيدي ان يرتكب مثلك جريمة الانتحار ، وان قلبي ليحدثني بأن الله جل شأنه أكرم وأرحم من ان يجزيك بغير الخير على تقواك وبرك بعياله الفقراء وصبرك على عنت اولئك الحكام الظالمين . ومن يدري فلعل سيدي حسنا ووالدته ما زالا على قيد الحياة ، فاننا لم تتحقق قتلهما بعد . فلنصبر ونواصل البحث ، واني خادمك المطيع لا يمكن ان اتركك لحظة حيثما تتوجه ، سواء أبقيت هنا في القاهرة ، ام آثرت الرحيل عنها الى اي بلد اخر» .

فهم به السيد عبد الرحمن وقبله شاكرا له حسن وفائه واخلاصه ، ثم نهضا وانطلقا الى المدينة فبلغاها وقد آذنت الشمس بالمغيب . وما زالا سائرين حتى بلغا الجامع الازهر ، فجلسا بالقرب من احد ابوابه ، وتبلغا بما تيسر من الطعام ، ثم تدثر السيد عبد الرحمن بمرقعته وتوسد طبله ، وتمدد علي بالقرب منه على الارض ، وما لبثا قليلا حتى راحا في النوم ، ولم يستيقظا الا على أذان الفجر تنطلق به اصوات المؤذنين من

الجامع الازهر والمساجد القريبة منه ملعلعة في الفضاء •

* * *

مضى السيد عبد الرحمن وعلي خادمه يتجولان في الشوارع المحيطة بالازهر ، وكانت الشمس قد اشرقت منذ ساعة ، لكنهما وجدا الشوارع مقفرة من المارة ، وجميع المتاجر والمنازل فيها مغلقة الابواب ، فقال السيد عبد الرحمن : «لا يمكن ان تقفر الشوارع من المارة وتغلق ابواب المتاجر والمنازل حتى هذه الساعة الا لامر خطير ، وأكبر ظني ان الجنود خارجون من القلعة اليوم لسبب من الاسباب» •

وما أتم جملته حتى رأيا بعض الاهلين قادمين نحوهما مهرولين مذعورين ، فلما وقعت أنظارهم على السيد عبد الرحمن وهو في زي الشيخ المجذوب صاحوا به قائلين : «ادع الله ينقذنا من هذا الكرب» • ثم مضوا في طريقهم لا يلوون على شيء ، ووجهتهم الجامع الازهر •

فتحقق انهم ذاهبون الى الجامع الازهر للاحتماء فيه من جنود المماليك ، ولم يجد من يسأله عن سبب خروج الجنود من القلعة ، فقال لعلي : «يحسن ان نعود الى الازهر نحن ايضا ، لنعلم ممن سبقونا اليه فيم خروج الجنود اليوم» •

فوافقه علي ، وما كادا يدخلان الجامع حتى وجداه قد امتلأ بمئات من الناس اكثرهم من اصحاب الحرف والباعة والمكاريين ومعهم حميرهم • وعلما ان الجنود خارجون في حملة جديدة لفتح الشام •

وبعد قليل ، أقبل جماعة من الجنود الانكشاريين ، فدخلوا الجامع الازهر وأخذوا في ضرب اللاجئين اليه وسلبهم ما معهم من الاموال والامتعة والسلع ، ولم يتركوا دابة من دواب المكاريين الا اخذوها مدعين انهم يحتاجون اليها في جهادهم • ولبثوا هناك ساعة يعتدون على

اولئك المساكين الآمنين ثم انصرفوا ، فأغلق اللاجئون ابواب الازهـــر مخافة ان يعودوا او يجيء غيرهم من الجنود فينالهم على أيديهم اعتداء فظيع اخر . ولبثوا هناك خائفين مترقبين حتى غربت الشمس ؛ وعلموا بأن الجنود غادروا القاهرة في حملتهم الجديدة ؛ ففتحوا ابواب الجامع وخرجوا للاطمئنان على متاجرهم ومنازلهم وأهلهم . وبقي منهم فـــي الجامع كثيرون اغلبهم من العلماء والطلاب ومشايخ الطرق . فقال السيد عبد الرحمن لخادمه : «لا داعي لخروجنا فلنبق ليلتنا هنا ؛ وعند الصباح يفعل الله ما يشاء» .

فقال علي : «لقد نطقت بالصواب يا سيدي» . ثم انتحيا ناحية في صحن الجامع ؛ وجلسا يتحدثان حتى صليت العشاء . وجاء جماعة من الفقهاء والطلبة فالتفوا حول السيد عبد الرحمن وراحوا يشكون اليـه ظلم المماليك للناس ، ويسألونه ان يدعو الله ان يكشف الضر عن عباده ويأخذ الظالمين بذنوبهم ؛ فكان يجيبهم بما يدخل الاطمئنان الى قلوبهم، ويذكرهم بأن الله ليس بغافل عما يعمل الظالمون ، ولكنه يؤخرهم ليوم يأخذهم فيه اخذ عزيز مقتدر .

وفي الصباح هم السيد عبد الرحمن وخادمه بالخروج من الازهر فاذا بالسيد المحروقي يدخله في جماعة كبيرة من العلماء والاشراف . فتذكر السيد عبد الرحمن ما كان من امر توسط صديقه الشريف الكبير لدى علي بك للافراج عن ولده حسن، فلم يتمالك عواطفه وهطلت الدموع من عينيه فعاد الى الجلوس في الازهر ، معتزما ان يقابل ذلك الصديق على حدة ، وأن يكشف له عن حقيقة امره ، ويستشيره فيما ينبغي ان يصنع بعد ان استولى علي بك وجنوده على أمواله وأملاكه وقتلوا ولده وزوجته .

ولم يمض الا قليل ، ثم اذا بالسيد المحروقي يرسل في طلبه مـن

تلقاء نفسه . وذلك ان بعض الفقهاء الذين جاءوا معه حدثوه حين رأوا الشيخ المجذوب في الجامع بما عرفوا من كراماته وأحواله ، فرغب في استطلاع امره بنفسه .

فنهض السيد عبد الرحمن ، ومضى الى حيث كان السيد المحروقي جالسا بين اولئك العلماء والاشراف يتشاورون فيما ينبغي اتخاذه لوقف المماليك عن ظلمهم . ولما وصل الى هناك وقف قريبا من مجلسهم بحيث يرونه ، فدعوه الى المجيء اليهم ، ولكنه هز رأسه اشارة الرفض ، ثم اشار بيده الى السيد المحروقي ليخاطبه على حدة ، فنهض هذا من المجلس ، وانتحى به ناحية ، وأصغى لما سيقوله فاذا به يقول : «اني لست بشيخ مجذوب ، ولا شأن لي بالانجذاب ، وانما انا صديقك القديم عبد الرحمن التاجر السابق في وكالة الليمون ، وقد تنكرت في هذا الزي خوف الظلم والعدوان» .

ثم روى له حكايته باختصار والدموع تنهمل من عينيه ، فبكى السيد المحروقي تأثرا ، ثم قال له : «لا تيأس يا صديقي ، فقد علمت ان ولدك لم يقتل ، وان الله قيض له الست نفيسة زوجة علي بك فأنقذته من المصير الرهيب الذي حكم به عليه زوجها ، وعاونته على الفرار الى سوريا او غيرها من البلاد المجاورة ، اما والدته فعلمت ان علي بك أمر باغراقها في النيل ، ولكنني علمت ايضا بأن الست نفيسة زوجته كانت قد ارسلت في طلبها قبل ذلك وأحسنت استقبالها ومواساتها ، ولعلها ان تكون قد عملت على انقاذها ايضا» .

فتجدد الامل في صدر عبد الرحمن ، وشكر صديقه السيد المحروقي على هذه المعلومات . ثم حياه وانصرف عائدا الى خادمه علي فزف اليه تلك البشرى ، وقررا السفر الى سوريا في اقرب وقت للبحث عن حسن هناك .

- ٨ -

رسول من عكا

تركنا حسنا وقد اخذه بعض الجنود المماليك من حرس علي بك ، على مشهد من امه في القلعة ، ليمضوا به الى النيل ويغرقوه فيه . تنفيذا لامر مولاهم .

فلما وصلوا به الى مصر العتيقة ، استولوا على قارب وجدوه راسيا على الشاطىء هناك قرب الميناء ، وأنزلوه فيه وهو يبكي ويتوسل اليهم دون جدوى ، ومعه كيس كبير من الخيش وحجر ثقيل أرغموه على حمله في الطريق ، لكي يضعوه معه في الكيس حتى لا يطفو بعد قذفه في الماء .

وفيما هم يهمون بحل القارب ، لاحت منهم التفاتة الى احدى السفن الراسية في الميناء ، فوجدوا العمال ينزلون منها براميل ادركوا من هيئتها انها ملأى بالنبيذ او الزبيب ، وزيف لهم الشيطان ان يستولوا على شيء مما فيها ليحتسوه في القارب احتفالا بتنفيذ امر علي بك . ومضى احدهم لانجاز هذه المهمة ، فلما عاد بعد قليل الى القارب وجد فيه مع زملائه مملوكا من الحرس الخاص بقصر علي بك . فظن انهم رأوه اتفاقا هناك فدعوه الى مشاركتهم النزهة والشراب . ثم ركبوا جميعا في القارب وانطلقوا به في عرض النيل . وما زالوا في شرب ولهو ، وحسن قابع في ركن من القارب وقد مل انتظار الموت ، وتمنى ان يعجلوا بقذفه في النيل . الى ان سمع كبيرهم ينهض فجأة ويصدر امره بالاتجاه نحو الشاطىء الشرقي ،فلم يخالجه شك في ان لحظة اغراقه قد حانت ، ونطق بالشهادتين ، ثم تجلد وتطلع اليهم ليريهم انه لا يهاب لقاء الموت ويؤثره

على الحياة في عهد حكمهم الفاسد الظلوم . وشد ما كانت دهشته اذ رآهم منصرفين عنه الى ما هم فيه من سكر وضحك وغناء ؛ ثم ازدادت دهشته حين وصل القارب الى الشاطىء فأنزلوه امامهم منه ؛ ثم ابتسم كبيرهم وقال : «لقد كتب لك عمر جديد . وهذا هو جبل المقطم امامك فعليك ان تدور حوله حتى تبلغ الطريق المؤدي الى سوريا فامض فيه قدما دون ان تلوي على شيء ، واياك ان يشعر بفرارك احد !»

ولم يصدق حسن سمعه ، بل لم يصدق عينيه حين سارع كبير الجنود على أثر ذلك بفك قيوده وأغلاله واعطائه صرة من المال يستعين بها في رحلته . وبقي واقفا في ذهول حتى دفعه الرجل بقوة في الطريق الجبلي الممتد امامه فاندفع يعدو فيه وصوت الرجل يلاحقه وهو يحثه على زيادة العدو ، حتى انقطع الصوت بعد قليل ؛ فخفف من عدوه والتفت فلم يجد احدا غيره في تلك المنطقة الجبلية المقفرة وقد زاد في وحشتها ما سادها من ظلام المساء ، وما اعتمل في صدره من شتى الهواجس والانفعالات .

على انه لم يجد بدا من مواصلة السير ، وما زال يعدو تارة ويمشي الهوينى تارة حتى نال منه الجهد والاعياء ؛ وسمع نباح كلاب من بعيد، فخشي ان يتقدم نحوها فيكون هناك خطر عليه . وآثر المكث حيث هو حتى الصباح ، فارتمى على الارض ، وحاول النوم فلم يستطعه لفرط خوفه وقلقه ، وبقي كذلك حتى لاح ضوء الفجر فنهض واستأنف سيره حتى مر عند الظهر بمضارب لبعض الاعراب ، فعرج عليها وحصل على حاجته من الماء والطعام ، كما حصل على ثياب عربية استبدل بها ثيابه للتنكر ، ثم مضى في طريقه حتى وجد اعرابيين يقودان جملين ، وعلم منهما انهما في طريقهما الى الصالحية ليصحبا من هناك قافلة ذاهبة الى سوريا ، فانضم اليهما وهو يحمد الله على هذا التوفيق ، لانه كان يخشى

السير منفردا ، فضلا عن انه لا يعرف الطريق ٠

وفي الصالحية ، اشترى لنفسه جملا وما يحتاج اليه من الزاد خلال الرحلة ، ثم انضم الى القافلة ، وقد اطمأن الى النجاة ٠ ولكن القافلة ما كادت تخرج من البلدة حتى دهمها جماعة من فرسان المماليك ، فاستولوا على ما فيها من الجمال والاحمال بحجة ان علي بك يحتاج اليهما فيما هو قائم به من الجهاد ٠ وعبثا حاول التجار ان يثنوا العساكر عن هذا الامر اذ هددهم هؤلاء بالقتل ، واضطروهم الى العودة الى الصالحية تمهيدا لارسالهم الى القاهرة ٠

* * *

كان هم حسن بعد ان رأى ما حل بالقافلة ان ينجو بنفسه حتى لا يعود الى القاهرة فينكشف امره هناك ٠ فانتهز فرصة اشتغال الفرسان المماليك باحصاء السلع التي كان التجار في القافلة ذاهبين بها الى الشام ، وترك جمله بما عليه واختبأ وراء أكمة هناك حتى انتهى الفرسان من احصاء تلك السلع وساقوا القافلة عائدين بها الى الصالحية ٠ فلما ابتعدوا نهض من مخبئه ومشى في طريق الشام الذي كانت القافلة سائرة فيه ٠

وما زال يجد في سيره وليس معه سلاح ولا طعام ولا ماء حتى ولى النهار وبدأ الظلام ينشر جناحيه على الصحراء الممتدة امامه ٠ وكانت قواه قد خارت من فرط ما عاناه من الخوف والاضطراب مع العطش والجوع٠ فجلس على أكمة من الرمل ونظر الى ما حوله فلم يجد سوى الرمال ينطبق عليها الافق من جميع الجهات ، فازداد قلقه وندم على مسيره وحده ، وتذكر ما اضطره الى ركوب هذا المركب الوعر ، وما لحق بأسرته من الظلم والاهانة والتشريد والتعذيب ، فأخذ يندب حظه مجهشا في

البكاء •

ولما اشتد الظلام ، ازداد شعوره بالخطر المحدق به ، حتى نسي عطشه وجوعه ، وخيل اليه ان ما حوله من السهول التي سادها الظلام والسكون قد امتلأت بوحوش كاسرة قادمة لافتراسه ، فاقشعر بدنه وأخذته الرعدة وتسارعت دقات قلبه ، وحاول النهوض فلم تقو ساقاه على حمله ، فتمدد في مكانه ، وأخذ يتلو ما تيسر من آيات القرآن ويبتهل الى الله ان يقيه السوء ، ويبعد عنه الهواجس •

وفيما هو كذلك ، وصل الى أذنه الملتصقة بالارض صدى وقع أقدام مسرعة ، فهب من مرقده مذعورا ، وتلفت الى مصدر الصوت ممعنا النظر على ضوء النجوم ، فلاح له شبح قادم من بعيد ، وما لبث الشبح ان اقترب منه فاذا هو هجين مسرع فوقه راكب لم يتبين هيئته • ثم لاح له بضعة أشباح اخرى مماثلة كأنها تطارد ذلك الهجان • .

وما هي الا لحظة حتى كان الجميع عند سفح الاكمة التي يجلس فوقها حسن ، وتبين ان هؤلاء المطاردين يرتدون ملابس الاعراب فأدرك انهم من اللصوص قاطعي الطريق ، ثم تحقق هذا اذ سمع احدهم يصيح بهم قائلا بعد ان لحقوا بالهجان الاول : «هيا لقد وقع الكلب فاقتلوه واستولوا على ما معه !» • فانبطح على الارض وعيناه تحسلقان في اتجاه المعركة ليرى ما تنتهي اليه ، وقلبه يخفق خوفا من ان يشعر بوجوده احد اللصوص •

ولم يطل انتظاره ، فان الهجان الاول ما لبث ان سقط عن ظهر هجينيه ، فهم به مطاردوه واستولوا على سلاحه وملابسه ما عدا القميص والسروال ، ثم تركوه ممددا على الارض وساقوا هجينه امامهم بما عليه من امتعة وغيرها وعادوا من حيث اتوا ، وحسن يتابعهم بنظراته حتى ابتعدوا وابتلعهم الظلام• وهنا نهض من مخبئه وهو يحمد الله على نجاته،

وهم بالابتعاد عن هذا المكان الذي قتل اللصوص فريستهم فيه ، لكنه سمع انينا صادرا من جهته فعلم انه ما زال فيه رمق من الحياة ، وتحركت في نفسه عاطفة الشفقة ولاسيما بعد ان تصور انه كان معرضا لمثل ذلك المصير ، فزايله خوفه وسارع الى المصاب المحتضر ، لعله ان يخفف عنه آلام الاحتضار ، او يعلم من هم اهله فيعمل على ابلاغهم وصيته ان اراد ان يوصي اليهم بشيء •

ولما وصل اليه ، وجده قد كف عن الانين فظن انه مات . ولم يتمالك عواطفه فبكى تأثرا بمصرع الرجل بعيدا عن اهله في ذلك القفر الموحش، ومال على جثمانه يفحصه ليتحقق موته قبل ان يواريه التراب كما قرر بينه وبين نفسه • وشد ما كان اغتباطه اذ وجد ان الرجل ما زال حيا ، لكنه مصاب بجرح في رأسه يسيل منه الدم . فسارع الى اخراج منديله وأخذ يمسح ذلك الدم ، ثم عصب له رأسه ، وأخذ يحرك جسمه ويربت وجهه حتى أفاق من غشيته وتحرك وعاد الى الانين . فاستمر في تنبيهه ومواساته سائلا اياه عن موضع ألمه • وما زال كذلك حتى استطاع الرجل ان يتكلم وعلم منه انه يشكو من الالم في ساقه ، فقال له : «لا بأس عليك يا اخي ولسوف تشفى عاجلا باذن الله» •

ثم حل حسن عمامته ، وبحث عن خشبة ليجبر له ساقه بها . فوجد في مكان المعركة عصا مكسورة ، وسرعان ما اخذ منها ثلاث قطع جعلها حول ساقه المكسورة متوازية ولف العمامة عليها لفا محكما ، وكان قد تعلم صنعة التجبير في البيمارستان المنصوري • ثم أمسك بيد المصاب وأجلسه برفق مسندا رأسه على صدره ، وراح يشجعه ويطمئنه على نفسه ، والرجل يعجب لصنيعه ويتمتم بشكره وهو ما زال بين الغيبوبة والصحو •

وأشرقت شمس اليوم التالي، وحسن مستمر في اسعاف الرجل

والترفيه عنه بالعبارات الرقيقة ، وقد استأنس به وان يكن جريحا ، واعتزم ألا يفارقه حتى يطمئن الى نجاته •

وبعد قليل استطاع الرجل ان يسترد بعض قواه ، ونظر الى حسن في ضوء النهار والى الجبيرة التي صنعها له ، فاطمأن اليه وذهب عنه الروع ، وهمس وعيناه تدمعان تأثرا بما رأى من مروءته وأريحيته قائلا له : «جزاك الله عني خيرا يا سيدي ، اني مدين لك بحياتي» •

فقال له حسن : «انني ما قمت لك الا بأقل ما يجب علي ، وأنت الان في حاجة الى الراحة، وثق بأنني لن اتركك حتى تبلغ مأمنك ان شاء الله» •

ثم نهض حسن وبحث فيما حولهما من السهل حتى وجد موضعا مستويا عند سفح أكمة قريبة ، فحمل صاحبه الى هناك وفرش له عباءته وأرقده عليها ، وأشار عليه بأن يستريح قليلا ريثما يجد وسيلة ينقله بها الى الصالحية ، فقال الرجل : «لن انسى فضلك ما حييت ، وان اسمي عماد الدين ، وقد جئت من عكا حاملا رسالة من حاكمها الشيخ ضاهر الزيداني الى علي بك حاكم الديار المصرية ، والحمد لله على ان هذه الرسالة بقيت معي ولم يستول عليها اللصوص الذين سلبوني مطيتي وسلاحي وأمتعتي وما كان معي من مال • فهل لي ان أتشرف بمعرفة اسم سيدي ، وكيف ساقك الله لانقاذي من الموت في هذا القفر بالليل ؟»

فقال : «اني من اهل مصر واسمي حسن ، وكنت عازما على السفر الى عكا في مهمة خاصة ، فخرج علي لصوص آخرون كثيرين واستولوا على راحلتي وأمتعتي ، ولم أنج بحياتي من بين أيديهم الا بمعجزة • وكأنما نجاني الله لكي أشهد ما وقع لك هنا ، وأسارع الى اسعافك بالعلاج عقب انصراف المعتدين الآثمين• فنحن اذن شريكان في الغربة والبأساء ، ولكن لا بأس عليك ان شاء الله» •

فعجب عماد الدين من امر ذلك الاتفاق الغريب ، وقال له : «هذه

ارادة الله ، وانه ليسعدني ان القاك في عكا لعلي استطيع ان أرد لك هناك بعض جميلك . وأكون اكثر سعادة اذا لم يكن لديك ما يمنع ذهابنا اليها معا ، بعد ان نمضي الى القاهرة وأؤدي الرسالة الى علي بك» .

فسكت حسن ولم يدر بم يجيب . اذ تذكر ما اصابه وأسرته على يد علي بك ، فهاجت احزانه ولم يستطع اخفاء الدمـــوع التي تسابقت تجري على خديه .

ولم يخف ما به على عماد الدين ، فاشتد عجبه وسأله : «أهذه اول مرة قصدت فيها الى عكا ام لك معرفة بها من قبل ؟»

وكان حسن في هذه اللحظة يفكر في ابيه ، وفيما وعده وأمه به من انه سينتظرهما في عكا ، فتلاحقت دموعه على غير ارادة منه ، ثم تجلد ولاح له ان عماد الدين قد يكون لديه نبأ عن ابيه ، فقال له : «الواقع انني كنت قاصدا عكا لاول مرة ، وقد سبقني اليها ابي . وتواعدنا على ان ألحق به» .

قال : «وكيف تذهب وحدك في طريق لا تعرفه ؟»

فسكت حسن حائرا ، وخاف ان يكشف حقيقة امره فيقع في مصيبة اخرى . وزاد هذا في شوق عماد الدين الى استطلاع الامر ، فقال له : «انني صرت لك اخا بل خادما منذ انقذت حياتي . ولا شك ان ما يهمني يهمك . ولعلي أوفق الى القيام لك بخدمة» .

ولم يجد حسن بدا من النزول على رغبة الجريح الصديق . فتنهـد وقال له : «ان حكايتي يبكي لها الصخر الاصم !» . ثم رواها له مـن اولها الى آخرها .

فتأثر عماد الدين كل التأثر وقال له : «حقا ان حكايتك تدعو الى الاسى والاسف ، ولكن لا حيلة فيما وقع ، اللهم الا الصبر . فاصبر وكن على يقين من ان الله سيثيبك على صبرك ، ولك علي عهد الله وميثاقه

لأكونن في خدمتك ما حييت» .

فشكره حسن ، وتفقد جروحه فوجد ألا خطر منها ، كما علم منه انه ارتاح قليلا من الآلام التي كان يشعر بها في ساقه . فحمد الله على ذلك، وبشره بعاجل الشفاء . وما زال يسامره بالاحاديث والاماني حتى لاح لهما جمل قادم من بعيد وفوقه راكب بملابس الاعراب ، فاستعاذ عماد الدين بالله من ان يكون القادم لصا قاطع طريق ، وبدا عليه الاضطراب . فابتسم حسن في وجهه مطمئنا وقال له : «ان الذي نجانا فيما مضى قادر على ان ينجينا فيما هو آت». ثم نهض وصعد الى الاكمة التي كان جالسا عليها بالامس ، ثم خلع ثوبه وأخذ يلوح به في الهواء ليراه الجمال القادم .

وبعد قليل كان الجمال قد رأى الثوب الملوح به فحول عنان جمله الى جهته وما زال يحثه حتى وصل اليهما فترجل وسلم ثم سألهما : «ما خطبكما ايها الصديقان ؟»

فاطمأن كل منهما لحسن لهجته وأدبه ، وقال له حسن : «اننا من القاهرة وكنا في عكا نحمل الى حاكمها رسالة من علي بك حاكم مصر، وفي عودتنا من عكا قطع علينا الطريق هنا بعض لصوص البدو ، واعتدوا على اخي هذا وجرحوه . فاذا تفضلت بنقله على جملك الى اقرب قرية من هنا ، كنا لك من الشاكرين» .

فقال الاعرابي : «اني رهن امركما ، ومنزلي غير بعيد من هنا ، فأنا أحق بشرف الضيافة» . ثم اقترب من عماد الدين وتأمل الضماد على رأسه والجبيرة على ساقه ، وقال متعجبا : «ان مثل هذه الاسعافات لا يحذقها الا طبيب» .

فاحمر وجه حسن خجلا ، وبادر عماد الدين الى الاجابة قائلا : «من فضل الله ونعمته ان اخي درس الطب في البيمارستان المنصوري على يد

طبيب مغربي كبير» .

فالتفت الاعرابي الى حسن وهش في وجهه وقال : «الحمد لله . نحن اذن اهل واخوان ، فان جدي رحمه الله كان طبيبا ومغربيا ايضا» . ثم اناخ الجمل وتعاون مع حسن على حمل عماد الدين الى متنه وشداه الى الرحل مستلقيا على ظهره . ثم عاد ثلاثتهم الى قرية الاعرابي ، فبلغوها بعد ساعات ، ونزل حسن وعماد الدين بمنزل الرجل ضيفين مكرمين الى ان التأم جرح عماد الدين ، والتأمت عظمة ساقـــه المكسورة او كادت بفضل العلاج الذي قام حسن به . فاستأذنه عماد الدين في ان يركب هجينا يذهب عليها الى القاهرة فيؤدي الرسالة الى علي بك ثم يعود اليه بعد ستة ايام على الاكثر ، فاستحسن الفكرة ، وودعه والاعرابـــي مضيفهما سائلين له السلامة في الذهاب والاياب .

امضى حسن الايام الستة الاولى بعد ذهاب عماد الدين الى القاهرة، يغالب الهواجس وتغالبه . فلما كان اليوم السابع اخذ ينتظر عودته منذ طلعت الشمس حتى غروبها ، فلما لم يعد في موعده ، قلــق وتعاظمت هواجسه وظنونه ومخاوفه ، وعبثا حاول مضيفهما الاعرابي تخفيف قلقه، فلم يتناول في العشاء الا لقيمات رغم انه لم يتناول اي طعام طـــول النهار . ثم جفا النوم عينيه طول ليلته . فلما اصبح تجدد امله في عودة عماد الدين ، وبقي ينتظره عند مدخل القرية نهاره كله وجانبا من الليل، لكنه لم يأت ايضا . فيئس حسن وخاف ان يكون صاحبه قد وقع مرة اخرى في أيدي قاطعي الطريق فأعدموه . وقرر ان ينهض عند الفجر فيمضي الى القاهرة متنكرا ليقتفي أثر عماد الدين ويقف على جلية امره، وأفضى بما اعتزمه الى صاحب المنزل ، فوافقه وأعد هجينا خفيفـــــة ليستقلها . وجلس معه بعد العشاء ليسامره كعادته ثم يودعه .

وفيما هما في ذلك ، أقبل عماد الدين ، فتعانقوا وتصافحوا وكان

اغتباطهم جميعا باللقاء عظيما٠

ثم روى عماد الدين ما أخره فقال : «لقد علمت حين وصولي الى القاهرة ان علي بك غادرها في حملة الى الصعيد لمحاربة قبيلة الشيخ همام ، فاضطررت الى انتظاره حتى رجع وأديت اليه الرسالة ، فأكرم وفادتي وغمرني بالعطايا والهبات ، ثم حملني رسالتين : احداهما للشيخ ضاهر حاكم عكا ردا على رسالته ، والاخرى لاسلمها للاميرال لسمبيكو قائد الاسطول الروسي الموجود الان في ميناء الاسكندرية ٠ وذلك لظن علي بك انني سأعود عن طريق البحر اذ هو اقرب ٠ وقد رأيت ان آتي اليك اولا حتى لا تقلق ، ولكي أعرض عليك ان نسافر الى عكا بحرا من الاسكندرية ، فالطريق البحري اكثر أمنا ٠ فما قولك ؟»

فوافق حسن على ذلك الاقتراح ، حبا في صحبة عماد الدين ٠ وتفاديا لخطر اللصوص في الطريق الصحراوي ولتأخره عن الموعد المضروب للقائه بأبيه هناك ٠

- ٩ -

في الاسكندرية

كان عماد الدين قد جاء معه من القاهرة بالعطايا والهبات التي نفحه بها علي بك ٠ فنزل للاعرابي مضيفهما عن بعضها ردا لجميله ، ثم اشترى هجينتين ركب احداهما وركب حسن الاخرى ، وما زالا يجدان السير في الحوف الشرقي حتى اتيا الفرع الشرقي للنيل ، فقطعه الى الدلتا

فالفرع الغربي للنيل وما وراءه حتى وصلا الى الاسكندرية اخيرا ؛ فباعا الهجينين لبعض الاعراب هناك ، ثم نزلا بفندق قرب الميناء ؛ على ان يبيتا فيه ليلتهما ، فاذا اصبحا مضيا الى الميناء وزارا الاسطول الروسي لتسليمه رسالة علي بك ، ثم بحثا عن سفينة ذاهبة الى الشام فركباها الى عكا .

ولم تكن الاسكندرية في ذلك الحين سوى مدينة صغيرة ، اهم ما فيها انها على البحر ، وان فيها مرفأين : احدهما للمسلمين وتقف فيه السفن العثمانية والمصرية ، وموضعه المكان المعروف برأس التين ؛ والاخر للنصارى في الموضع المعروف بالمينا القديمة . فلما كان صباح اليوم التالي مضى عماد الدين وحسن الى الميناء الجديد حيث قيل لهما ان الاسطول الروسي فيه ، فلم يجدا هناك اية سفينة ، وعلما بأن هياج البحر بسبب النوء الشديد اضطر السفن الى الابتعاد الى عرض البحر خوفا من الغرق في الميناء ، ولاسيما ان سفنا كثيرة تحطمت وغرقت فيه منذ ايام. وسألا : متى ينتظر ان يهدأ البحر وتعود سفن الاسطول الى الميناء ؛ فقيل لهما : «ان هذا لا ينتظر قبل يومين» . فعادا الى الفندق آسفين وأمضيا يومهما في تفقد المدينة . وفي صباح اليوم التالي رأى عماد الدين ان يترك حسنا في الفندق قليلا ريثما يمضي هو الى الميناء للسؤال عن الاسطول . وفيما هو واقف هناك يتطلع الى سفن الاسطول الراسية في عرض البحر ، وهو يرتدي الملابس السورية المؤلفة من القباء (القفطان) الحريري وفوقه الجبة ، وعلى رأسه الكوفية والعقال ، وفي يده غليون طويل يدخن فيه التبغ . دنا منه بحار من الاسكندرية يرتدي السروال الفضفاض المشدود على الساقين ، وعلى رأسه عمامة ارسل طرفها على قفاه ، وسأله قائلا : «اراك تكثر من التطلع الى سفن المسكوف . فهل يهمك الوصول اليها ؟»

فقال عماد الدين : «ان معي رسالة أريد تسليمها الى امـــــيرال الاسطول » .

قال : «وممن هذه الرسالة ؟» . فقال : «من علي بك الكبير» .

فبغت البحار ، وتأدب في وقفته بعد ان كان يكلم عماد الدين ويداه خلف ظهره وغليونه في فمه ، وقال له : «اذا كان ابـــلاغ الرسالة لا يحتمل التأجيل الى غد فاني على استعداد لابلاغها الان !»

فعجب عماد الدين وقال : «وكيف تستطيع ذلك والبحر ما زال هائجا كما ترى !»

قال : «ان امواج البحر تعرفني وتعرف قاربي ، فلست اخافها مهما تكن غاضبة ثائرة . ولكني لا أذهب في هذه المهمة الا اذا نقدتني عليها كيسا كاملا (خمسمائة قرش) .! »

فضحك عماد الدين وقال : «كيس كامل ؟.. هل حسبت انني علي بك نفسه حتى استطيع دفع هذا الاجر» . قال هذا وغادر الميناء عائدا الى الفندق مؤثرا الانتظار حتى اليوم التالي . ودخل الغرفة التي ترك حسنا فيها فلم يجده هناك ، وعلم انه خرج منذ قليل . فقال في نفسه : «لعله استبطأ عودتي فخرج ليروح عن نفسه عناء الانتظار بالتنزه على شاطيء البحر» . ولبث ينتظره في الفندق حتى حان موعد الغداء دون ان يرجع. فأوجس خيفة عليه لعلمه بحكايته وبأنه لا يعرف احدا في المدينة ، وخرج يبحث عنه هنا وهناك ، فلما لم يجده بعد ساعات من البحث ، عاد الى الفندق لعله سبقه اليه من طريق اخر . فعلم انه لم يأت اليـــه بعد ، وخاطب في شأنه صاحب الفندق فقال له هذا : «لا خوف عليه الا ان يكون قد سار الى جهة قلعة رأس التين . لان فيها بعض الجنود المماليك والانكشارية وهم لا يتورعون عن انزال الاذى بأي انسان ، بل لا يتورعون عن القتل اذا كان لهم من ورائه نفع بسيط !»



انتظر عماد الدين في الفندق على نار حتى صباح اليوم التالي ، ثم خرج من الفندق قاصدا الى الجمارك لمقابلة مديرها وطلب مساعدته في البحث عن حسن . وكان صاحب الفندق هو الذي اشار عليه بذلك ، لان مدير الجمارك يومئذ شامي مثله واسمه انطون فرعون ، ولا يقل نفوذه عن نفوذ اعظم الامراء ، ولاسيما انه فضلا عن كبر منصبه ذو ثروة طائلة، وقصره الفخم الجسيل على الشاطىء لا يخلو من الحفلات التي يدعو اليها الكبراء من الاجانب والوطنيين .

فلما وصل الى ادارة الجمارك ، علم ان المدير لم يحضر بعد فوقف ينتظر قدومه هناك ، وبعد ساعة رأى موظفي الادارة وعمالها في هرج ومرج ، ثم اصطف اكثرهم عند مدخلها ووقفوا متأدبين ، فعلم ان المدير قادم ، واتنظم في جملة المستقبلين . وما لبث المدير ان أقبل في زي فخم تحفه الهيبة والابهة والوقار ، فهم كبار الموظفين بتقبيل يده ، ففعل عماد الدين مثلهم ، ثم تبعه حتى بلغ حجرته الخاصة وهم بدخولها فناداه عماد الدين بلهجته الشامية قائلا : «سيدي المدير» . فالتفت اليه وسأله: «ما حاجتك ؟» . فقال : «ارجو ان يتنازل السيد بدقيقة اروي له فيها ما دفعني الى المجيء هنا» .

فأشار اليه بأن يتبعه الى الحجرة ، وأذن له في الجلوس وطلب له قهوة ، ثم لم يكد يسمع حكايته عن فقد زميله وخوفه ان يكـــــون الانكشارية قد نالوه بسوء ، حتى طمأنه وقال له : «هذه مسألة بسيطة، وسأرسل الان نائبي الى قلعة رأس التين فاذا كان الجنود الذين فيها قد اعتقلوا صاحبك طمعا في ماله او في ان يفتديه اهله بالمال ، اخرجه النائب من السجن وجاءنا به معززا مكرما» .

فوقف عماد الدين وقبل يد المدير قائلا : «جزاك الله احسن الجزاء، وهكذا المروءة والشهامة» .

فقال : «هذا أقل ما يجب» • ثم صفق ، فلما جاء الحاجب أمره بأن يبلغ النائب امره بالذهاب الى قلعة رأس التين والسؤال عن شاب اسمه حسن يظن ان الجنود اعتقلوه هناك ، فاذا وجده أبلغ الأغا رئيس الجنود انه من أتباعه ، وجاء به•

فحنى الحاجب رأسه سمعا وطاعة وانصرف • والتفت المدير الى عماد الدين وسأله : «كيف حال الشام الان ، وهل الشيخ ضاهر الزيداني ما زال حاكما في عكا ؟»

قال : «نعم يا سيدي ؛ وهو الان بسبيل الاستيلاء على بلاد الشام كلها» •

فهز المدير رأسه عجبا وقال : «ما شاء الله !•• الشيخ ضاهر يحكم بلاد الشام كلها ؟•• هل تعرف تاريخه جيدا ؟»

فقال عماد الدين : «سيادتكم أدرى» •

قال : «لقد اخبرني ابي بأنه عرفه منذ كان غلاما يعيش مع ابيه الشيخ عمر الزيداني وقبيلته البدوية في جهة بحيرة طبرية ، ولما توفي ابوه آلت اليه رياسة القبيلة ، وحاربه اولاد العظم حكام دمشق لما رأوه يحاول توسيع سلطانه لكنهم لم يستطيعوا قهره ، وأخذ في التجارة مستعينا بأعوانه الكثيرين من البدو ، فجمع ثروة كبيرة ، وما لبث ان استولى على عكا وانتزعها بلا حرب سنة ١٧٤٩ من يد الاغا الذي كان يحكمها باسم والي صيدا ، ثم حصنها وبنى له شمالها قصرا أشبه بالحصن ، ولم تجد الدولة العلية بعد ذلك بدا من منحه سنة ١٧٦٨ لقب (شيخ عكا وأمير أمراء طائفة المتاولة وقومندان الناصرة وطبرية وصفد وشيخ الجليل) • ولم اعد أسمع عنه شيئا منذ ذلك الحين» •

فقال عماد الدين : «انه فتح مدينة صيدا ، وأقام عليها واليا اسمه (الدنكرلي) • ولما نشبت الحرب بين الدولة العلية وروسيا انحاز الى

الروسيين متحدا في ذلك مع علي بك هنا في مصر ؛ ولا يخفى عليكم ان الاسطول الروسي في ميناء الاسكندرية الان . ولست اخفي عليكم اني جئت من عكا برسالة من الشيخ ضاهر الى علي بك ؛ وقد كلفني هذا حين قابلته في القاهرة منذ ايام حمل رسالة منه الى اميرال الاسطول الروسي هنا» .

فقال المدير : «يلوح لي من هيئتك ولهجتك في الحديث انك من الدروز اللبنانيين ، فما الذي أدخلك خدمة الشيخ ضاهر ؟»

قال : «ان أسرتي ملت كثرة المنازعات بين الامراء الشهابيين حكام لبنان ؛ فانضمت كغيرها الى الشيخ ضاهر» .

وما زالا في مثل هذا الحديث حتى عاد النائب ومعه حسن ؛ فنهض عماد الدين وقبل يد المدير ، وكذلك فعل حسن ؛ ثم استأذنا في الانصراف شاكرين ، فأذن لهما وانصرفا .

★ ★ ★

سار حسن مع عماد الدين الى الفندق ، وقص حسن في الطريق قصة اعتقال المماليك اياه ، ذاكرا انهم استولوا على كل ما كان يحمله من النقود وطمعوا في المزيد فسألوه عن اهله ليرسلوا اليهم كي يفتدوه من السجن ، فلما اخبرهم بألا اهل له في الاسكندرية ولا في غيرها من الديار المصرية لم يصدقوه ، وأبقوه في السجن حتى يرشد عن اهله وهددوه بالقتل ان لم يفعل . فلبث في السجن خائفا يترقب حتى جاء نائب مدير الجمارك وخاطب الاغا في شأنه فأفرج عنه في الحال .

وباتا ليلتهما في الفندق ، ثم سارا الى الميناء في الصباح فوجدا السفن الروسية قد عادت اليه ، فاكترى عماد الدين قاربا أوصله الى سفينة الاميرال حيث سلمه رسالة علي بك . ثم عاد الى حسن وأخذا في

البحث عن سفينة ذاهبة الى السواحل السورية الى اذ وجدا سفينـــة تجارية كبيرة تعتزم الذهاب في الغد الى بيروت رأسا ؛ فحجزا لهما مكانا فيها ، على ان يقطعا المسافة القريبة من بيروت الى عكا برا • ثم عادا الى الفندق فأعدا امتعتهما للسفر • وما اشرقت شمس اليوم التالي حتى كانا في السفينة وهي تمخر عباب البحر ناشرة أشرعتها • ومرت قبل مغادرتها المياه المصرية بميناء دمياط فحملت منه مقادير كبيرة من الارز ، ثـــم استأنفت رحلتها قاصدة الى بيروت فأشرفت عليها بعد بضعة ايام •

- ١٠ -

في جبل لبنان

أعجب حسن حين اشرفت السفينة على بيروت بسلسلة جبال لبنان الشامخة المكسوة بالثلوج والاشجار ، ولاحظ ان مدينة بيروت تحيط بها تلال مرتفعة عنها فقال لعماد الدين : «ان هذه التلال المرتفعة خطر على المدينة ، اذ يستفيد بها العدو الذي يغزوها برا ويتسلط عليها بسهولة» •

فقال عماد الدين : «صدقت يا اخي ، ولكن المدينة بها عدا القلاع البحرية ـــ كقلعة الميناء الداخلة في البحر ، وقلعة الخارجية ، وقلعـــة شويخ ـــ برج هائل شرقيها هو هذا الذي يبدو اعلى أبراجها جميعا ، ويقال له (برج الكشاف) • وهو يشرف على كل الجهات ، وبجانبه برج اخر صغير ليست له اهمية كبيرة • كما ان بها من الغرب برجين كبيرين هما : برج أم دبوس ، وبرج طاقة القصر • وكان للمدينة فيما مضى سور

تهدم بمضي الزمن ؛ لكن ابوابه ما زالت سليمة وفيها مراكز دفاعية لا بأس بها» •

ولمح حسن غربي المدينة تلا مرتفعا داخلا في البحر وعليه الاشجار والزروع ، ووراءه سهل ممتد من الرمال • فلما سأل عنه عماد الدين اجابه هذا بقوله : «هذا رأس بيروت وهو يمتد الى مدينة صيدا» • ثم اشار الى تل في الجهة الشرقية وقال له : «هذا تل الاشرفية ، وهو اكثر أغراسا ، وليس وراءه الا الجبل كما ترى» •

فأشار حسن الى أبراج متفرقة بين البساتين والغياض على رأس بيروت وتل الاشرفية وقال : «أليست هذه الابراج للدفاع ايضا ؟»

فقال عماد الدين : «انها أبراج ، لكنها للسكنى وليست للدفاع ؛ وقد بناها بعض الامراء والاعيان في عهود متفرقة ليسكنوها في فصل الشتاء ؛ وقلما يسكنها غير القادرين لوقوعها خارج المدينة وتعرضها للغزو وسطو اللصوص وقاطعي الطريق» •

وكانت السفينة قد القت مراسيها ، فغادراها الى المدينة حيث طافا ببعض اسواقها الضيقة ، وأعجب حسن برصف شوارعها ونظافتها • وبعد ان وضعا امتعتهما في فندق قرب سوق الحدادين ؛ اخذ عماد الدين حسنا وأراه قيسارية الامير منصور حاكم لبنان السابق وغيرها من القيساريات •

فقال حسن : «هل الشيخ ضاهر هو حاكم بيروت الان ؟»

فقال عماد الدين : «لا • بل هي تابعة للامير يوسف شهاب الدين • ومثلها طرابلس وصيدا وصور • على ان الامير يوسف والشيخ ضاهر متفقان في الخفاء على محالفة الروسيين • ومما يذكر ان والي المدينة الذي يحكمها باسم الامير يوسف الان هو احمد بك الجزار الذي كان فيما مضى من أمراء علي بك في مصر ، ثم وقع بينهما نفور ، ففر الى

الاستانة خوفا على حياته من علي بك ، ثم جاء الى هذه البلاد فرتب له الامير منصور نفقة من جمرك بيروت • وبقي كذلك حتى جاء الاسطول الروسي الذي رأيناه في الاسكندرية فخرب المدينة وهدم أسوارها ، ونهب جنوده متاجرها ومنازلها بتحريض من الشيخ ضاهر طمعا في اخضاع الامراء الشهابيين لسلطانه ايضا ، وظلوا يحاصرونها حتى بعث الامير منصور الى الشيخ ضاهر يوسطه لدى الروسيين في فك الحصار عنها في مقابل ان يدفع لهم مبلغا كبيرا من المال : فتم الصلح بينهم على ذلك • ثم جاء الامير يوسف فولى الجزار على بيروت • وأحسب ان هذا لا يلبث قليلا حتى يخرج عليه ، فقد تركته حين سافرت من عكا والامير متغير عليه لما بلغه من انه يبني الحصون ويعد معدات الدفاع في المدينة ويسخر الناس في تلك الاعمال» •

فقال حسن : «أسأل الله ألا تنشب الحرب بينهما ونحن هنا ، ويا حبذا لو نعجل بالرحيل الى عكا لتفادي الاخطار ، ولكي أبحث عن ابي هناك» •

فوافقه عماد الدين على ذلك ، ثم انطلقا عائدين الى الفندق . وفي الطريق تفرج حسن على الغياض المحدقة بالمدينة من الجنوب وفيها أغراس التين والمشمش واللوز وغيرها . وعلى باب الدركاه ، وبرج الكشاف ، وباب المصلي المؤدي الى قصر الحكومة حيث يقيم احمد بك الجزار • فلما اقتربا من القصر قال عماد الدين : «يحسن ان نعجل بالابتعاد عن هذه المنطقة فان الجزار قد يأمر بقتلنا لادنى شبهة تخالجه في امرنا ، وقد أسرف في سفك الدماء حتى صار له من اسمه اكبر نصيب، وتروى عنه في ذلك احاديث تقشعر لها جلود الاسود • أذكر منها انه داعب احدى سراريه مرة بقطع أذنها بخنجره !• وما احسبه ان علم بأني من رجال الشيخ ضاهر الا معجلا بالفتك بي» •

ثم جدا في السير حتى وصلا الى الخان ودخلا غرفتهما حيث اخذا يعدان امتعتهما للرحيل • وبعد ان استراحا قليـــــلا قال عماد الدين : «سأذهب الى صاحب الفندق لاخبره باعتزامنا السفر ، وأستعين به على اكتراء جملين او جوادين نركبهما الى عكا» •

فقال حسن : «حسنا تفعل ، واسأل الله التوفيق» •

وطال انتظار حسن رجوع عماد الدين من هذه المهمة ، فقلق وغادر الغرفة قاصدا الى غرفة صاحب الفندق ليبحث عن عماد الدين هناك . فوجدهما جالسين على دكة فيها يتهامسان ، وما وقع نظر عماد الدين عليه حتى ناداه وأشركه معهما في الحديث ، فاذا بصاحب الفندق يقول : «ما اظن ان الخروج من المدينة ممكن في هذه الايام ، فالاحوال مضطربة ، والامير يوسف في طريقه الينا على رأس حملة قوية من جنوده لتأديب احمد بك الجزار • وقد أمر هذا باغلاق ابواب المدينة ومنع الدخول اليها والخروج منها» •

فبغت حسن ، وانقبضت نفسه ، وبدت على محياه علائم التذمــــر والاستياء ، فقال له صاحب الفندق : «لا تتذمر يا بني ، واحمد الله على انكما لم تحاولا الخروج من المدينة قبل علمكما بهذا النبأ الخطير» • ثم ناوله غليونه وفيه تبغ مشتعل ، وقال له : «ان الامر لله يفعل ما يشاء. وهذه الدنيا لا يدوم فيها حال ، وقد مضى علي اربعون سنة أعمل في هذا الفندق ، ومر علي كثير من الاهوال التي يشيب لها الولدان ، فكم غزا اللبنانيون وأهل البلاد المجاورة هذه المدينة من البر ، وكم سطا عليها القرصان والجنود الاجانب من البحر • وما اكثر الحكام الذين استبدوا في حكم اهلها من مسلمين ونصارى • وقد تولى حكمها مرة رجـــل نصراني يقال له (ابو عسكر الجبيلي) فعاث فيها الفساد وأسرف في القتل والتعذيب والارهاب ، وغره شيطان الظلم والقوة فظن ان لن يقدر عليه

احد وأمعن في طغيانه وتجبره . فقاسينا منه الامرين ، وأصابني مـــن اضطهاده وعنته بلاء كثير . ثم ذهب كما ذهب قبله وبعده كثيرون من أمثاله ، وسبحان من له الدوام» .

فقال حسن : «وما ظنك بمسألة الجزار هذه ، هل يطول امرها ؟»

قال : «ان نبأ قدوم الامير يوسف وجيشه لم يصل الى المدينة الا منذ ساعات ، وقد علمت به قبل ان يعلم به الجزار نفسه ، اذ سمعته مـــن الرسول الذي حمله عند مروره بالفندق في طريقه الى قصر الحكومة . وعما قريب نرى ونسمع ما يكون من شأن الفريقين» .

* * *

في صباح اليوم التالي ، استيقظ حسن وعماد الدين على ضجة كبيرة في الفندق وخارجه . فنهضا مذعورين وهما يحسبان ان الحرب نشبت بين الامير يوسف والجزار . ولكنهما ما لبثا قليلا حتى تبينا من اصوات المنادين في الطرقات ان الامر انتهى بالمصالحة ، وان الجزار خارج فـــي موكبه لمقابلة الامير يوسف في السهل الرملي المعروف باسم (المصطبة) وكتابة عهد الصلح ، فقال حسن : «الحمد لله الذي كشف عنا الضر» . ثم التفت الى عماد الدين وقال : «ألا ترى ان نخرج لمشاهدة مجلس الصلح ؟ »

فقال عماد الدين : «انني طوع ارادتك ، ولكننا تأخرنا عن الوصول الى عكا كثيرا ، فلنذهب الى صاحب الفندق لعله يستطيع ان يكتري لنا جوادين نركبهما في رحلتنا ، ثم نعجل بالرحيل ، فأبوك لا بد قد سئم طول الانتظار في عكا ، كما اني لا آمن ان يغضب علي الشيخ ضاهر» .

فقال حسن : «لقد نطقت بالصواب ، فهيا بنا الى صاحب الفندق» .

ولما بحثا عن صاحب الفندق علما انه ذهب الى المصطبة لمشاهـــدة

الصلح ، فاستقر رأيهما على اللحاق به ومباحثته في امر اكتراء الجوادين هنــاك •

وفيما هما سائران بالقرب من قصر الحكومة ، سمعا ضجة صادرة من جهته ، وشهدا كثيرين من الاهلين يعدون في طريقهم اليه ، فأدركا ان الجزار خارج في موكبه ، ووقفا حتى مر المركب فاذا بجماعة من الجنود المغاربة يتقدمونه لافساح الطريق ، ويعقبهم كوكبـــــة من الفرسان . يتوسطهم الجزار على جواد أصيل سرجه من الديباج المذهب ، وهو يلبس سراويل فضفاضة من الجوخ السميك ، وعلى كتفيه الجبة ، وعلى رأسه القاووق المملوكي الطويل تحت العمامة ، وفي منطقته خنجر : والى جانبه سيف معقوف ، وفي يده مذبة من شعر الخيل مقبضها من العاج • ومن خلف هؤلاء الفرسان فرقة صغيرة من الجنود الاتراك المشاة ، ومعهـــم الطبول والابواق •

فلما مر الموكب تبعه عماد الدين وحسن حتى جاوز المدينة وساحـة السور ووصل الى المصطبة ، وهي ارض رملية بها بعض الاشجار مـن الصنوبر والصبير ، وفيها أقيمت خيمة الامير يوسف تحيط بها خيـام الحاشية والجنود •

وترجل الجزار حينما اقترب من خيمة الامير ، ومشى مسرعا حتى دخلها ، وحيى الامير في ادب واحترام ، ثم هم بيده فقبلها وكان هذا جالسا على وسادة في صدر الخيمة ، وهو يرتدي الجبة والقباء وعلـى رأسه العمامة ، فلما رأى الجزار جاءه معظما مستعطفا ، خفت حدة غضبه عليه وقال له : «لماذا لم تكف عن ترميم الحصون ؟»

فقال : «حاش لله ان أخالف امر الامير ، ولكن البنائين كانوا قد اوشكوا ان ينتهوا من ذلك قبل وصول الاوامر» •

فقال الامير يوسف : «على كل حال ، اريد ان يقف كل عمل من هذا

القبيل ، وأن تخلى المدينة» •

فقال الجزار : «سمعا وطاعة ، وأرجو ان يتفضل الامير بامهالنا بضعة ايام للقيام بما يريد» •

قال : «اننا نمهلك اربعين يوما ، على ان تتم خلالها اخلاء المدينة والخروج منها» •

فحنى الجزار رأسه موافقا ، ثم مال على يد الامير فقبلها ، وغادر الخيمة متأدبا ، ثم عاد بموكبه الى القصر •

ولما عاد عماد الدين وحسن الى الفندق ، اجتمعا بصاحبه ، وطلبا اليه ان يعاونهما على اكتراء دابتين تحملانهما الى عكا ، فوعدهما بذلك ، لكنه لم يستطع تحقيق مطلبهما الا بعد يومين اذ وجد مكاريا لديه جوادان ، واستطاع ان يقنعه بحمل حسن وعماد الدين عليهما الى عكا لقاء أجر كبير •

* * *

ودع حسن وعماد الدين صاحب الفندق ، وسارا يقصدان الخروج من باب الدركاه ، والمكاري خلفهما ومعه الجوادان يحملان أمتعتهما ، فلما اقتربا من الباب وجداه مغلقا ، وسألا البواب عما دعا الى اغلاقه فقال لهما : «لا ادري • ولكن الامر صدر بذلك من مولانا الوالي» •

فوقفا مبهوتين ، ثم سألا البواب : «هل ابواب المدينة كلها أغلقت؟» فقال : «نعم» • ثم حانت من عماد الدين التفاتة الى يمين الباب فوجد العمال عاكفين على ترميم السور فقال لحسن : «ان الجزار يستعد للدفاع، وما احسبه الا قد اعتزم البقاء في المدينة» •

فقال حسن : «علينا اذن ان نحتال للخروج منها قبل ان تنشب الحرب بينه وبين الامير ، فكيف نستطيع ذلك ؟»

فأخذ عماد الدين بيد حسن ، وانتحى به ناحية وأسر اليه قائلا : «لا حيلة لنا في الخروج بالجوادين والامتعة ، والرأي عندي ان نكتفي بما خف حمله ، ومتى صرنا خارج المدينة دبرنا وسيلة للركوب» .

فقال : «لكن كيف نخرج من المدينة ؟»

فأشار الى بناء كبير بالقرب من باب يعقوب وقال له : «ان هـــذا البناء دير لجماعة من القسس يقال لهم المرسلون الكبوشيون ، والسور وراء الدير مباشرة ، فاذا نحن دخلنا الدير وقصصنا على رئيسه قصتنا فقد يسمح لنا باجتياز السور من هناك» .

قال : «افعل ما تريد فاني لا أخالفك في شيء» .

فعادا الى المكاري . وطلبا اليه ان يعود بالامتعة الى الفندق ويسلمها لصاحبه ، ونفحاه ببعض المال فعاد لتحقيق طلبهما شاكرا ، ومضيا هما الى الدير عبر الزقاق الضيق الذي يؤدي اليه ، فلما بلغا بابه طرقاه ، فأطل احد الرهبان برأسه من فتحة فوق الباب وسأل : «من الطارق ؟» . فقال عماد الدين : «غريبان من المساكين يريدان الالتجاء اليكم» .

فغاب الراهب قليلا ريثما استأذن رئيس الدير ، ثم عاد وفتح الباب ودعاهما الى الدخول . ثم اغلقه كما كان وقادهما الى حجرة وجدا فيها قسيسا يرتدي قباء من الجوخ شد وسطه فوقه بحبل ، وعلى رأســـه (طاقية) صغيرة سوداء مستديرة ، وفي قدميه نعل شدت اصابعهما اليها بسيور من الجلد .

فهم عماد الدين بيد القس فقبلها بأدب واحترام وهو يقول : «أسعد الله صباحك يا حضرة البادري» . وكان هذا هو اللقب الذي يطلق على رهبان تلك الطائفة .

فرد البادري تحيته بمثلها ، بلغة عربية سقيمة . وأشار اليهمـــا بالجلوس على وسادتين في الحجرة فجلسا وهو يفحصهما بنظراته مخافة

ان يكونا قد جاءا بدسيسة من الجزار •

وقبل ان يسألهما عما دعاهما الى الالتجاء الى الدير ، قال عماد الدين: «لقد جئنا لنتضرع اليك كي تنقذنا من هلاك محقق ، فنحن غريبان جئنا من عكا ، وأردنا الرجوع اليها فوجدنا ابواب المدينة مغلقة بأمر واليها، وفي تأخرنا عن العودة الى بلدتنا خطر كبير علينا وعلى اهلنا فيها ، فضلا عن خطر بقائنا في هذه المدينة» •

فقال البادري : «وماذا نستطيع ان نصنع ، والوالي لا يمكن ان يقبل فتح الابواب ما دام قد أمر باغلاقها ؟»

فأخذ عماد الدين يشرح له المساعدة التي يطلبانها محاولا اجتذاب قلبه بما عهد فيه من اللباقة والاجلال والتعظيم ، فتأثر البادري بتوسلاته وقال له : «لا بأس ، سأدخلكما احدى الغرف المطلة على خارج السور، لتنجو من نافذتها حينما ينتصف الليل ويسود الظلام» •

فقبلا يده شاكرين ، وظلا يسامرانه بالاحاديث بعض الوقت ، ثم مضيا الى الغرفة التي اختارها لهما فدخلاها وأغلقا عليهما الباب بعد ان زودهما البادري ببعض الطعام والشراب • ولبثا ينتظران حتى ينقضي النهار ويسود الظلام ليفرا الى خارج السور •

- ١١ -

حصار بيروت

انتظر عماد الدين وحسن في غرفة الدير حتى انتصف الليل ، ثم

نهضا فقفزا من نافذتها الى سطح سور المدينة ، ولم يكن بينه وبينها اكثر من متر ، فلما استقرا فوقه بقيا حينا لا يتحركان وقد أرهفا السمع وراحا يتأملان السهل الممتد خارج السور في ضوء النجوم . فلما اطمأنا الى ان ليس هناك من يشعر بهما ، همس عماد الدين في أذن حسن قائلا : «ان السور مرتفع عن الارض كثيرا ، وفي الوثوب من هنا خطر كبير» .

فخفق قلب حسن جزعا وخوفا وسكت حائرا ، على ان عماد الدين سرعان ما عمد الى كوفيته فنزعها عن رأسه وكتفيه ، كما نزع منطقته. وطلب الى حسن ان ينزع عمامته ففعل وناوله اياها ، فوصل بعضها ببعض بحيث صارت حبلا طويلا . ربط احد طرفيه بمنطقة حسن ، ثم طلب اليه ان يدلي نفسه من فوق السور الى الارض خارجه ، بينما أمسك هو ببقية الحبل وأخذ يرخيه قليلا قليلا حتى وصلت قدما حسن الى الارض في الوقت الذي افلتت فيه يد عماد الدين الطرف الاخر من الحبل ، فبغت وجزع لانه كان يعتزم بعد ذلك ان يثبت ذلك الطرف بأعلى السور ثم يتدلى ممسكا بالحبل حتى يصل هو الاخر الى الارض .

على انه حمد الله على وصول صديقه الى الارض بسلام ، ولم يشأ ان يضيع الوقت في التردد والتفكير . فأخذ يزحف فوق السور وهو يتطلع الى الارض حتى وصل الى موضع رأى الارض اقرب اليه لارتفاعها نسبيا ، فأمسك بصخرة ناتئة في السور ، مدليا جسمه نحو تلك الاكمة المرتفعة ، ثم أفلت الصخرة تاركا جسمه يسقط عموديا فوق الاكمة . فأحدث ارتطامه بها صوتا مدويا أيقظ الحراس النائمين بباب يعقوب ، فخفوا الى مصدر الصوت ليروا ما هناك . وسرعان ما انقضوا عليه كالذئاب ، وحملوه الى داخل السور وهو يئن من الالم . اذ كانت السقطة قوية لم تتحملها ساقه التي كسرت من قبل في المعركة التي دارت بينه وبين قاطعي الطريق . وما وصلوا به الى مقرهم خلف الباب حتى كان قد

وقع في اغماء عميق ؛ فأخذوا يرشون وجهه بالماء حتى أفاق ؛ وراح يصرخ من فرط الالم لكسر ساقه . لكنه ادرك وهو يجيل نظره بينهم انهم لم يشعروا بهرب حسن ، فكان هذا اكبر عزاء له . وما زال يستنجدهم ويستثير شفقتهم حتى رثوا لحاله ورضوا ان يبعثوا بأحدهم في طلب طبيب لتضميد جروحه وتجبير ساقه المكسورة .

وكان البادري رئيس الدير قد شعر هو ووكيله بالضجة التي حدثت عند باب يعقوب ، فأدركا ان الضيفين اللذين هربا الى خارج السور من الدير وقعا في أيدي الحراس . وفيما هما يتداولان في ذلك ؛ سمعا طرقا على الباب . ثم جاءهما البواب وأخبرهما ان احد الحراس يطلب طبيب الدير لاسعاف رجل وقع على الارض من فوق السور فانكسرت رجله . فنهض الوكيل ومضى الى الباب فأطل من الكوة التي فوقه على الحارس المنتظر وسأله متجاهلا : «لمن تريدون طبيب الدير ؟»

فقال الحارس : «نريده لاسعاف رجل قبضنا عليه خارج السور بعد ان سقط من فوقه وهو يحاول الخروج من المدينة» .

فأدرك الوكيل انهم لم يقبضوا الا على احد الضيفين ، وأراد ان يحتال لانقاذه ؛ ولانقاذ الدير في الوقت نفسه من غضب الجزار ، فقال للحارس : «ان هذا الخائن الذي قبضتم عليه لا يستحق الشفقة . فهو من خدم الدير الذين نرسلهم لابتياع المؤن من لبنان ، وكان الرئيس قد غضب عليه لخياناته وحبسه في غرفة بأعلى الدير ؛ فحاول الفرار من النافذة ، لكنه وقع في شر اعماله» .

فجازت حيلة الوكيل على الحارس واعتقد ان المصاب المقبوض عليه من خدم الدير ، فقال : «على كل حال ، انه الان يئن من فرط الالم اذ كسرت ساقه ؛ ولا بأس بأن يسعفه طبيب الدير ؛ ثم نبعث به في الصباح الى قصر الوالي فيلقى جزاءه كما يريد رئيس الدير» .

فقال الوكيل : «اذا لم يكن بد من تطبيبه ، قياما بواجب الانسانية. فالافضل ان نعيده الى الدير ، وسأستأذن الرئيس في ذلك ، فاذا قبل لحقت بك لاحضار ذلك الخائن المصاب» . ثم أغلق الكوة وعاد الى رئيس الدير ، فأخبره بالحيلة التي عمد اليها انقاذا لذلك الغريب المسكين، ولابعاد الشبهات عن الدير ، فاغتبط الرئيس بذلك وقال : «لقد حاولنا انقاذه اولا حبا في عمل الخير ، ولا شك ان انقاذه الان اوجب لانه جريح » .

وكان الحارس قد عاد الى زملائه . وأنبأهم بما علمه من ان المصاب كان محبوسا في الدير لخيانة ارتكبها فيه . ثم جاءهم وكيل الدير بعد قليل ، وأكد لهم صحة تلك الرواية ، ثم طلب منهم معاونته على حمل المصاب واعادته الى الدير ، فقال الجاويش رئيس الحراس : «لكننا لا بد لنا من تبليغ امره الى حضرة الوالي ، لاننا اعتقلناه خارج السور بعد صدور الامر بعدم الخروج من المدينة او دخولها» .

فقال وكيل الدير : «اننا أشد رغبة منكم في الانتقام من هذا الخائن، وسنتولى ابلاغ الامر الى الوالي فيما بعد» . وما زال يحاورهم ويموه عليهم حتى أقنعهم باعادة المصاب الى الدير ، فتعاون بعضهم على حمله ومضوا به والوكيل معهم حتى أدخلوه الدير وأرقدوه على وسادة في احدى الغرف ثم انصرفوا .

وخشي وكيل الدير ان يبلغوا الامر الى الجزار ، فعاد الى جاويشهم وانتحى به ناحية ، ثم شكره على همته ويقظته ، ومد اليه يده بصرة من النقود قائلا : «ان رئيس الدير بعث بهذا اليك تقديرا لشهامتك ويرجو ان تقبله بركة منه» .

فتناول الجاويش الصرة ووجهه يفيض بالغبطة والابتهاج . وصافحه الوكيل مودعا وهو يقول : «وقد طلب مني الرئيس ان أبلغك رجاءه ألا

يبلغ امر ذلك الخادم الخائن الى جناب الوالي ، لانه يرغب في محاكمته بحسب قوانين الدير» •

فقال الجاويش : «حسنا • ليكن جناب الرئيس مطمئنا : فسأحقق طلبه هذا اكراما لانسانيته» •

فعاد الوكيل الى الدير مغتبطا بنجاح مسعاه ، ولم يكن رئيس الدير بأقل منه اغتباطا بذلك ، ثم أشرفا على علاج عماد الدين من جروحه وكسر ساقه • وأعدا غرفة لاقامته بالدير حتى يتم شفاؤه •

* * *

كان حسن بعد ان وصل الى الارض خارج سور المدينة ، قد شعر بافلات الحبل الذي تدلى بوساطته من عماد الدين ، فوقع في حيرة ، ولم يدر ماذا يفعل ، ثم لاح له ان يربط حجرا بأحد طرفي الحبل ويقذف به الى عماد الدين فوق السور ، ولكنه لم يستطع ان يرفع صوته لينبئه بهذه الفكرة مخافة ان يسمعه الحراس • وفيما هو في حيرته هـــذه ، رأى عماد الدين في ضوء النجوم قد دلى جسمه محاولا الهبوط من فـوق السور ، ثم سمع صوت اصطدامه بالارض وصرخته متألما ، فخف الى مكانه لنجدته • لكنه ما لبث ان سمع ضجة الحراس وهم يفتحون الباب. وأيقن بأن عماد الدين لن يفيده شيئا ان يبقى بجانبه حتى يقبض عليهما معا ، فاستقر رأيه على النجاة بنفسه من أيدي الحراس • وابتعد مسرعا من ذلك المكان ، وهو لا يدري اين يتوجه ، ولا يكاد يتبين الطريق •

وما زال مجدا في سيره حتى نال منه التعب والخوف بعد حوالي نصف ساعة ، فوقف ليستريح ، وأخذ يتفرس فيما حوله فوجد انه في ارض رملية مرتفعة ، وقمم جبال لبنان الشامخة تبدو الى الشرق ، تتخللها أضواء متفرقة كأنها فصوص من الماس او نجوم ترصع الفضاء • ثم رأى

القمر بازغا في ربعه الاخير فاستأنس بضوئه ، ولبث في جلسته قليلا حتى ارتفع القمر في الافق ، فأدرك على ضوئه انه بالقرب من المصطبة التي حدثت فيها المقابلة بين الامير يوسف والجزار . وذكرته الاكمة التي جلس عليها بالليلة التي التقى فيها بعماد الدين قرب الصالحية فساوره القلق عليه وهاجت أحزانه ولم يتمالك عن البكاء .

وبعد قليل ، تجلد ونهض فولى وجهه شطر الاضواء المنبعثة من المنازل والمغارات القائمة فوق الجبال الشاهقة الممتدة امامه . وما زال سائرا في تلك السهول الرملية حتى صادف تلا مرتفعا فصعد الى قمته وتفرس فيما حواليه ، فرأى نورا يبدو قريبا منه . فهبط من التل واتجه الى مصدر ذلك النور ، فلم يبلغه الا بعد ساعة . وأدرك انه قرب من البحر اذ سمع هديره ، ثم تأمل البناء المنبعث منه ذلك النور فاذا هو منعزل والسكون يخيم عليه . فدار حوله حتى وجد بابا صغيرا ، فدنا منه وقرعه ويده ترتعش قلقا وخوفا ، فسمع صوتا من الداخل يقول : «من بالباب ؟» . فقال : «رجل غريب» .

وبعد قليل ، فتح الباب ، وظهر خلفه شيخ عجوز في زي القس وقال له : «مرحبا بك» . ثم أدخله وأغلق الباب وتقدمه الى غرفة صغيرة بها مصباح زيتي خافت الضوء ، وليس فيها من الاثاث سوى حصير فوقه وسادة صغيرة . فترامى عليها متهالكا من فرط التعب ، وقال للقس : «عفوا يا سيدي فأنا في تعب لا مزيد عليه» .

فقال القس : «لعلك في حاجة الى الطعام» . فسكت عن الجواب ، ولكن القس فهم انه جائع فغاب عنه قليلا ثم عاد اليه ومعه ما تيسر من الطعام وقلة بها ماء ، ثم انصرف وتركه وحده في الغرفة ، فأكل وشرب وتمدد على الحصير فما لبث ان ادركه النوم ولم يستيقظ الا وقد طلع النهار .

وعلم بعد ذلك ان البناء الذي أوى اليه هو مغارة النبي ايليا ، وهي بمثابة كنيسة يؤمها كثير من النصارى اللبنانيين للصلاة والتبرك ، والوفاء بالنذور .

- ١٢ -

فتح بيروت

تركنا السيد عبد الرحمن وقد اعتزم مغادرة القاهرة قاصدا الى عكا ومعه علي خادمه الخاص ، للبحث عن حسن هناك .

وكان قد عرف الطريق اليها من قبل ، فقال لعلي : «ان الطريق لا يخلو من خطر ومشقة ، ولكني أعرفها جيدا منذ كنت أذهب الى الشام للتجارة ، وقد قطعتها في المرة الماضية بسلام عقب فراري من حملة الحجاز » .

فقال علي : «اني رهن اشارتك وعلى استعداد لان ألقي بنفسي في البحر او النار فداء لك ، فهيا بنا الى هناك على بركة الله» .

قال : «بورك فيك من صديق مخلص ، وأرى ان نذهب الى عكا متنكرين ، فأعود انا الى زي الطبيب المغربي الذي عرفت به هناك ، وتتنكر انت في زي مساعد لي يحمل الجراب الذي به ادوات التنجيم والتنبؤ وضرب الرمل وما اليها ، ولكي تقوم بمعاونتي حين أضطر الى فتح المندل» .

فقال : «لقد نطقت بالصواب يا سيدي» .

ثم انطلقا حتى بلغا اول بلدة في الطريق وهي مدينة بلبيس ؛ فابتاعا منها ما يحتاجان اليه من الملابس والادوات لذلك التنكر • ثم اشتريا هجينين ركباهما الى العريش ؛ ومن هناك اخذا طريقهما الى سوريا ؛ فالتقيا بالحملة التي كان علي بك قد ارسلها بقيادة صهره محمد بك ابي الذهب لفتح غزة . ووجدا ان الحملة قد حاصرتها من جميع الجهات تمهيدا لذلك الفتح •

فقال السيد عبد الرحمن : «ارى ان نعدل الى طريق اخر نصل منه الى يافا ، حتى نكون بمأمن من ان يكشف امرنا احد من رجال ابي الذهب» • فاستحسن علي هذا الرأي ؛ وتحولا بهجينيهما الى طريق اخر يؤدي الى يافا ، وما زالا في حل وترحال حتى بلغاها بسلام . فوجدا اهلها يستعدون للدفاع وهم في خوف من مجيء الحملة المصرية •

وبعد ان استراحا قليلا في يافا . واصلا رحلتهما الى عكا . فأقاما بها اسبوعين ، وهما يبحثان عن حسن في كل مكان يظنان انه يقصد اليه؛ فلم يقفا له على اثر •

وعلما وهما في عكا ان حاكمها الشيخ ضاهر الزيداني ارسل كثيرا من الجند مزودين بالاسلحة والمؤن وعلى رأسهم بعض اولاده لمساعدة الحملة المصرية في غزواتها ، وفقا للمعاهدة بينه وبين علي بك •

فقال السيد عبد الرحمن : «لا ارى ان نبقى هنا بعد الان ، اذ لا فائدة من البقاء ، وفيه علينا خطر ؛ ولعل الاوفق ان نذهب الى بيروت»•

قال : «كما تريد» • ثم سارا من هناك قاصدين الى بيروت ، ومرا ببلدتي صور وصيدا حيث بحثا عن حسن فيهما ايضا فلم يجداه • وما كادا يصلان الى قرب بيروت حتى وجدا السفن الروسية قد ملأت ميناءها، وأخذت تطلق عليها مدافعها اجابة لطلب الشيخ ضاهر • وكان الامير يوسف قد ارسل اليه يستنجده لاخراج الجزار من المدينة ؛ واتفقا على

الاستعانة بالاسطول الروسي الذي كان مرابطا في قبرص حينذاك ، في مقابل خمسة وعشرين الف قرش ، وجعل الامير موسى ابن الامير منصور شهاب رهنا عند الاميرال الروسي حتى يدفع ذلك المبلغ .

وكان الجزار قد أتم بناء السور المتهدم ، وأحكم تحصين المدينة ، فأخذ الاسطول الروسي يضربها من البحر حتى هدم جانبا كبيرا من السور والابراج ، ثم نزل جنوده وحاصروها من البر ، ولكن الجزار صمد في دفاعه فبقي الحصار بضعة اشهر حتى مل الروسيون . وعادوا يضربون المدينة بمدافعهم من البحر .

وفي ذلك الحين وصل السيد عبد الرحمن وخادمه الى بيروت ؛ فلما وجداها على هذه الحال ، قال السيد عبد الرحمن : «ماذا نصنع الان ؟» وهل تظن ان حسنا يمكن ان يكون داخل المدينة مع من فيها من المحصورين ؟ »

فقال علي : «علم ذلك عند الله ، واذا كان سيدي حسن محصورا فيها فان الله قادر على ان يحفظه سالما» .

فقال السيد عبد الرحمن : «اني عرفت اميرال الاسطول الروسي منذ جئت عكا للمرة الاولى ، وأرى ان نذهب لمقابلته لعلنا نفيد من ذلك شيئا» .

قال : «هذا رأي حسن» . ثم سارا الى معسكر الروسيين خارج المدينة ، ورفعا علما ابيض دليل المسالمة، فلما قبض عليهما الجند وسألوهما عما يريدان ، طلب السيد عبد الرحمن مقابلة الاميرال ، فساقوهما الى خيمته .

وما كاد الاميرال يرى السيد عبد الرحمن في زي الطبيب المغربي حتى عرفه فرحب به وسأله : «اين كنت منذ فارقتنا ؟»

فقال : «قمت بجولة في الديار المصرية لمزاولة مهنتي ، ثم عدت الى

بيروت فاذا بكم تحاصرونها ومعسكركم قريب مني ، فجئت لأؤدي لكم واجب التحية وأكون انا وتابعي في خدمتكم وحمايتكم» •

فتنبه الاميرال الى وجود تابع مع السيد عبد الرحمن ، وقال مداعبا: «يلوح لي ان مهنة التنجيم رائجة في مصر ، لهذا عدت من هنـــاك ومعك تابع !»

فضحك السيد عبد الرحمن وقال : «يكفيني ان انال رضاءكـــم السامي» • ثم اخذ في ملاطفة الاميرال وأطرافه بالملح والفكاهات الى ان قال الاميرال : «لقد جئنا في المرة الماضية ونحن في نزهة بحريـــة لطيفة • اما في هذه المرة فنحن في حرب وضرب ؛ وعما قليـــل نضرب المدينة الضربة الاخيرة ، فاما ان يخرج منها الجزار واما ان ندكهـــا على رأسه» •

فضحك السيد عبد الرحمن وقال : «ما دمتم تحاربون جزارا فالامر أهون من ان يحتاج الى اطلاق المدافع ودك الحصون ، ويكفي ان تهددوه بالذبح فيستسلم في الحال !»

فأعجب الاميرال بهذه المداعبة وحسبها تلميحا من الطبيب المغربي الى قرب استسلام الجزار ، فمضى يجاذبه اطراف الاحاديث ، والسيـــد عبد الرحمن يضمن كلامه ما يدخل السرور والامل في النصر القريب الى قلب الاميرال •

وفيما هو في ذلك ، جاء بعض الجنود الروسيين ومعهم رجل عربي قالوا انه من اهل المدينة وقد هرب منها وقصد الى المعسكر الروسي مدعيا ان لديه رسالة يريد تبليغها الى الاميرال نفسه •

والتفت الاميرال الى الرجل وأخذ يتأمله مليا ، ثم قال له على لسان الترجمان : «يلوح لي اني رأيتك قبل الان» •

فقال الرجل : «نعم يا مولاي ، لقد تشرفت بمقابلتكم في الاسكندرية

حين كان أسطولكم راسيا في مينائها ، وقد ...»

فقاطعه الاميرال وقال : «نعم نعم .. قد تذكرت الان ، فأنت الرسول الذي حملت الينا هناك رسالة من علي بك في القاهرة ، أليس كذلك ؟»

قال : «نعم يا مولاي» .

قال : «وماذا جاء بك الى بيروت اذن؟»

قال : «اني من رجال الشيخ ضاهر الزيداني في عكا ، واسمي عماد الدين . وقد أرسلني الى مصر برسالة منه الى علي بك . فلما بلغتها وتسلمت الرد عليها ، كلفني علي بك حمل رسالته اليكم في الاسكندرية . وحينما اردت الرجوع الى عكا لم اجد سفينة ذاهبة اليها، فركبت سفينة وجدتها قادمة الى هنا على ان اقطع المسافة من بيروت الى عكا على جواد او جمل . وما وصلت الى بيروت ودخلتها حتى أغلق الجزار ابوابها ومنع الخروج منها والدخول اليها ، فبقيت هذه الفترة الطويلة في خطر القتل بنيران مدافعكم من جهة ، وبيد الجزار من جهة اخرى اذا هو علم بأني من رجال الشيخ ضاهر» .

فعجب الاميرال من هذا الاتفاق العجيب وقال لعماد الدين : «وكيف استطعت الاختفاء كل هذا الوقت الطويل ؟»

فقال عماد الدين : «يرجع الفضل في ذلك الى جماعة من الرهبان المسيحيين ، يقيمون بدير لهم على سور المدينة عند باب يعقوب ، فقد آووني في الدير وتكفلوا بأمري منذ لجأت اليهم محتميا من ظلم الجزار وغدره . وما خاطرت بحياتي اليوم وخرجت من المدينة الى هنا الا لكي أرد لهم بعض جميلهم علي ، وذلك اني وجدتهم يبحثون عن رسول يبعثون به اليكم كيلا تضربوا ديرهم بمدافعكم لانهم ليسوا من الاعداء، فتطوعت لابلاغ هذه الرسالة» .

فأعجب الاميرال بشهامته وسأله : «اين يقع دير القوم ؟» . فقال :

«هو هذا البناء الظاهر من هنا قرب باب يعقوب» • وأشار بيده الى الديـر •

فأصدر الاميرال امره الى قواد مدفعيته بأن يجتنبوا ضرب ذلـك الدير ، ثم امر بأن تعد خيمة ينزل بها عماد الدين والطبيب المغربـي وتابعه ، وأن يصرف لهم ما يكفيهم من الطعام والشراب وكل ما يحتاجون اليه الى ان يقضي الله في امر المدينة بما يشاء •

* * *

كان عماد الدين منذ وقعت عينه على السيد عبد الرحمن قد لاحظ شدة التشابه بينه وبين صديقه حسن ، فخفق قلبه حزنا على فراق ذلك الصديق وانقطاع أخباره عنه • كما تذكر ما علمه منه من ان أباه سبقه الى عكا ، فرجح عنده ان هذا الطبيب المغربي ليس سوى السـيد عبد الرحمن والد حسن الذي يبحث عنه •

وما استقر المقام به في الخيمة مع الطبيب المغربي وتابعه وجلسـوا لتناول الطعام معا ، حتى التفت اليهما وقال : «هل لي ان اسأل من اين جاء السـيدان الى هذه المدينة ؟»

فقال السيد عبد الرحمن مقلدا لهجة المغاربة في كلامهم : «جئنا من المغرب ، وصناعتنا التطبيب والتنجيم» •

فقال عماد الدين : «أي تطبيب وأي تنجيم يا اخي ؟• لقد :كلنا معا عيشا وملحا فلا ينبغي لنا ان يموه بعضنا على بعض» •

فاستعاذ السيد عبد الرحمن بالله من شر هذه الاسئلة المحرجة ، ولاسيما بعد ان سمع محدثه يذكر للاميرال انه من رجال الشيخ ضاهر وانه حمل رسالة منه الى علي بك في مصر ، وحمل من هذا رسالة الى الاميرال • على انه تجلد حتى لا يفضحه خوفه وقال : «لم أذكر لك الا

الحق يا سيدي ، فاذا لم تصدقني فاسأل الاميرال فهو يعرفني منذ بضعة اشهر وقد صحبته في سفينته من عكا الى دمياط » •

فابتسم عماد الدين ، ورجح لديه ان ظنه في محله ، ثم اراد ان يمضي في امتحان محدثه ، فقال له : «أكنت في دمياط ؟ حسنا •• لقد وضح لي الآن سر المشابهة بين سحنتكما ولهجتكما في الحديث بسحنة اهل مصر ولهجتهم رغم محاولتك تقليد اللهجة المغربية» •

فازداد خوف السيد عبد الرحمن ، ولكنه جاهد ليخفي خوفه وقال: «ان تابعي هذا اقام في مصر زمنا طويلا ، وكانت أمي من مصر ، فضلا عن ترددي اليها كثيرا لمزاولة مهنتي» •

فضحك عماد الدين ساخرا وقال : «أليس غريبـــا ان تغادرا مصر لمزاولة مهنتكما في غيرها في حين انها اوسع رزقا ، وأهلها اكثر حاجة الى الكحل وغيره مما في جرابكما» •

فأخذ السيد عبد الرحمن يبتلع ريقه بصعوبة لجفاف حلقه من احراج محدثه اياه بأسئلته • وخشي ان يطول سكوته فيزداد الرجل ريبة فيه ، فقال له : «ان الله هو الرزاق ، وقد تعودنا التنقل من بلد الى بلد والحل والترحال بيد الله» •

فضحك عماد الدين وقال : «نعم كل شيء بيد الله ، ولكنه جل شأنه جعل لكل شيء سببا ، فما هو السبب الذي جعلك تترك مصر الى مدينة محاصرة من جميع الجهات ؟!»

وهنا لم يطق علي خادم السيد عبد الرحمن صبرا على هذه الاسئلة المحرجة المتلاحقة فقال لعماد الدين : «ما هذه الاسئلة كلها يا سيدي ؟ هل رأيتنا طلبنا منك رزقا او سألناك اي سؤال ؟»

فضحك عماد الدين ساخرا وقال له : «ان كنت قد اكثرت من الاسئلة فما ذلك الا لانني من رجال الشيخ ضاهر حليف علي بك حاكم مصر، وقد

يكون في خروجكما منها بلا سبب معقول ما يضر بمصلحتهما ، فأسئلتي قانونية كما تريان» •

فاغتاظ السيد عبد الرحمن من خشونة خادمه واغلاظه القـــــول لعماد الدين ؛ وبادر الى انتهاره ترضية لهذا قائلا : «ومن أقامك محاميا عني ؟•• ان اسئلة السيد كلها من حقه ان يسألها • واذا صح ظني فهو انما يريد ان يستفزنا ليحفزنا الى ان نظهر له ما نعرف من فنون التنجيم وغيرهـــا » •

وهنا كان عماد الدين قد انتهى من تناول الطعام ، فالتفت الى السيد عبد الرحمن وقال له · «أما فنون التنجيم فما أحسب ان في الدنيا من هو أعلم مني بأسرارها وخفاياها • مع اني لا احمل جرابا ، وليس معي كتاب ولا انا مغربي • فهل تريد ان أقدم لك دليلا عمليا على ذلك ؟»

فسبق علي الى الرد على عماد الدين وقال متحديا : «هذا هو الجراب وفيه كل أدوات التنجيم ومعداته ، فأرنا فنك لعلنا منك نستفيد !» • قال هذا ونهض فجاء بالجراب ووضعه بين يدي عماد الدين • ولكن هذا نحى الجراب جانبا وقال : «لا حاجة بي الى مثل هذه الادوات» • ثـــم التفت الى السيد عبد الرحمن وقال له : «هل اقول ما علمته بفني عنك ؟»

فأوجس السيد عبد الرحمن خيفة من هذا التحدي ، لكنه لم يسعه الا ان هز رأسه موافقا وقال : «قل ما عندي» •

فقال عماد الدين : «ان اسمك عبد الرحمن • فهل هذا يكفي ام اقول ايضا ؟»

فأجفل السيد عبد الرحمن وعلي ، وأخذ كل منهما ينظر الى الاخر وفي نظراتهما دلائل العجب والاضطراب • فتجاهل عماد الدين واستأنف كلامه فقال : «وقد تركت مصر يا سيد عبد الرحمن في جمع كبير من مختلف الاجناس والالوان ، ثم تخلفت عنهم في الطريق واتجهت الـــى

جهة اخرى للقاء بعض الاعزاء ، وبينهم ابنك حسن !»

وهنا كان السيد عبد الرحمن وعلي خادمه قد بلغت دهشتهما أشدها فوقفا ينصتان ذاهلين ، بينما مضى عماد الدين في الكلام قائلا : «ولكنك لم تجد الاعزاء الذين ذهبت للقائهم ، فرجعت الى مصر متنكرا في زي طبيب مغربي ، وكان رجوعك من طريق البحر» .

فلم يتمالك السيد عبد الرحمن عواطفه بعد ذلك وانفجر باكيا ، ثم هم بيدي عماد الدين يحاول تقبيلهما وهو يقول له : «كفى كفى يـــا سيدي ، وما دمت مطلعا على حقيقة امرنا فأتوسل اليك بحق من تحب ان ترثي لحالنا ولا تفضحنا» .

فبدا التأثر في وجه عماد الدين وقال له : «طب نفسا وقر عينا يا سيد عبد الرحمن ، واعلم ان ابنك حسنا بمنزلة اخي بل هو أعز كثيرا لانـــي مدين له بحياتي» .

فصاح السيد عبد الرحمن قائلا : «ابني .. ابني حسن .. هـــل رأيته يا سيدي ؟.. بالله اخبرني اين هو ؟» . ثم رمى بنفسه عليه وأخذ يقبل كتفيه وهو يبكي وينتحب . وكذلك فعل علي خادمه . فبكـــى لبكائهما عماد الدين . ثم اخذ في مواساتهما والتخفيف عنهما ، وروى لهما حكايته مع حسن من اولها الى اخرها . فلما انتهى من ذلك قال له السيد عبد الرحمن : «ألا تظن أن حسنا بعد ان هرب من بيروت قد ذهب الى عكا ليبحث عني فيها ؟»

فقال : «هذا ما أرجحه ، وعلى كل حال ثق بأني لن يهدأ لي بال حتى يجمع الله شملنا به سواء أكان في عكا ام في غيرها» .

وفيما هما في ذلك اذ وصل الى أسماعهم صوت الابواق تدوي في المعسكر ، ثم ما لبثوا ان سمعوا اصوات المدافع منطلقة من البر والبحر على المدينة ، فخيل اليهم ان السماء ستنطبق على الارض وخرجوا مـــن

الخيمة مهرولين فاذا الجو قد امتلأ بالدخان والغبار . فأدركوا ان الاميرال قد نفذ ما توعد به من ضرب المدينة ضربته الاخيرة . فلم يسعهم الا الرجوع الى الخيمة والانتظار فيها حتى تنجلي المعركة ويروا ما يكون.

وفي صباح اليوم التالي وقف عماد الدين ومعه السيد عبد الرحمن وعلي خادمه امام خيمتهم ينظرون الى بيروت ويأسفون لما نالها من الهدم والتخريب .

وفيما هم كذلك شاهدوا هجانا قادما من الجهة الغربية قاصدا الى المعسكر .فلما مر بخيمتهم عرف عماد الدين انه من زملائه رجال الشيخ ضاهر فناداه . وما كاد الرجل يراه حتى بغت وترجل عن هجينه وراح يعانقه ويقبله قائلا : «اين كنت يا اخي . لقد اقلقتنا بطول غيابك» .

فقال عماد الدين : «ان حكايتي يطول شرحها ، وسأقصها عليك في وقت اخر ، فقل لي انت فيم قدومك الان ؟»

فقال الرجل : «ان الجزار كتب الى الامير يوسف شهاب بأنه مستعد لتسليم المدينة على ان يؤذن له بالخروج منها بأصحابه وأمواله آمنا . فكتب الامير الى الشيخ ضاهر راجيا ان يتوسط لدى الاسطول الروسي كي يكف عن ضرب المدينة ويرفع عنها الحصار ، فأجاب الشيخ ضاهر طلبه ، ثم ارسلني برسالة الى الاميرال ليبعث معي بفرقة من الجنـــود لتسليم المدينة الى الامير يوسف» .

ثم مضى الرسول الى خيمة الاميرال فأبلغه رسالة الشيخ ضاهر . فأمر هذا بتنفيذ ما جاء فيها .

ولم تمض ساعة حتى خرج الجزار وأعوانه من المدينة وقد كســا وجوههم الخجل لما اصابهم من الفشل والانكسار ، ورغم الخراب الذي عم المدينة اخذ اهلها في الاحتفال برفع الحصار عنها وخروجها من حكم الجــزار .

وفي مساء اليوم نفسه عاد جميع الجنود الروسيين الى سفينتهم في البحر ، معتزمين الرحيل بعد ان أدوا مهمتهم ، وعرض الاميرال علـــى السيد عبد الرحمن ان يصحبه في سفينته كما صنع في المرة الماضية ، فاعتذر شاكرا ، ثم سار هو وعلي خادمه ومعهما عماد الدين الى صيدا، فوصلوا اليها بعد مسير حوالي عشر ساعات على شاطىء البحر بالهجين، وهناك ودعهما عماد الدين على ان يسير هو جنوبا قاصدا الى عكا ، بينما يسيران هما شرقا قاصدين الى دمشق عبر جبال لبنان • وذلك كي يبحثوا جميعا عن حسن في تلك المناطق • ثم يكون لقاؤهم جميعا في عكا بعد شهر •

- ١٣ -

فتح دمشق

ركب السيد عبد الرحمن وعلي خادمه الخاص هجينهما وسارا من صيدا وهما لا يزالان في زيهما المغربي قاصدين الى دمشق •

وبعد المسير ثلاثة ايام قاصدين تارة على ربى لبنان ، وهابطين تارة في سهوله وأوديته ، وصلا الى سهل البقاع المشهور بخصبه • وهو واقع بين جبل لبنان من الغرب وجبل الشيخ من الشرق • فمكثا هناك يوما للاستراحة ، ثم استأنفا رحلتهما فقطعا وادي الحرير ، ثم وادي القرن المشهور يومئذ بكثرة من فيه من اللصوص وقاطعي الطريق •

وأخيرا دخلا دمشق من باب الجابية ، ونزلا بأحد فنادقها حيث باتا

فيه ليلتهما واستراحا قليلا من عناء رحلتهما الشاقة • وفي الصباح غادرا الفندق وأخذا يطوفان بأسواق المدينة وشوارعها ، وأمضيا في ذلك طول النهار وهما يمعنان النظر في كل غريب يسادفهما لعله ان يكون ضالتهما، ثم عادا الى الفندق في المساء فتناولا فيه عشاءهما ، وأمضيا بعض اوقت يرسمان الخطط ويختاران أحسنها للبحث عن حسن •

وفيما هما جالسان في اليوم التالي بأحد المقاهي ، يحتسيان القهوة وأمام كل منهما نارجيلة يدخن فيها التمباك ؛ اقترب منهما احد اهـــل المدينة وقد لفت نظره زيهما المغربي وحياهما في ادب ولطف ، ثم بداهما بالحديث قائلا : «لعل دمشق ان تكون قد أعجبت السيدين الكريمين» •

فقال السيد عبد الرحمن : «الحق انها مدينة عامرة جميلة ، وقـــد وجدنا من لطف اهلها وكرم اخلاقهم ما انسانا مشاق الاسفار والشوق الى الوطن والاهل» •

فقال : «ومتى كان وصولكم اليها ؟»

قال : «وصلنا منذ يومين» •

فقال : «اهلا وسهلا ومرحبا بكما ، لقد شرفت المدينة كلها بزيارتكما لها • ويا حبذا لو ان هذه الزيارة كانت ودمشق في ظروف عادية • اذن لطابت لكما الاقامة بها و •••»

فقاطعه علي وقال : «هل المدينة الان في ظروف غير عادية ؟»

فتنهد الدمشقي ، وهز رأسه اسفا وقال : «ليس هناك الا الخير باذن الله» • وسكت •

فقلق السيد عبد الرحمن وقال : «انك رجل كريم الاخلاق يبـــدو عنصرك الطيب في ملامح وجهك وحديثك ، ونحن غريبان عن المدينة كما ترى ، فهلا صرحت لنا بما طرأ على المدينة لنكون على بينة من الامر ؟»

فقال الدمشقي : «لقد كانت دمشق الى ما قبل سنوات مدينة آمنة

مطمئنة ينعم نزلاؤها جميعا بالراحة والهدوء والسعادة ، ثم تبدل الحال بعد ذلك غير الحال ، ولكن الله قادر على ان يعيد الامور الى نصابها».

فازداد قلق السيد عبد الرحمن وقال : «قد سمعنا ان اولاد العظم ولاة هذه البلاد من أحرص الحكام على اقامة العدل والسهر على الرعية، وكان هذا مما حملنا على المجيء لزيارة دمشق ، فهل ما سمعناه ليس حقا؟»

فعاد الدمشقي الى التنهد وهز رأسه اسفا واكتفى بأن قال : «ان ما سمعتموه هو الحق يا سيدي ، فالباشا والحمد لله لا يدخر جهدا في سبيل أمن البلاد وسعادتها» .

فقال السيد عبد الرحمن : «اذن ماذا هناك ؟.. لعل الوفاق ليس تاما بين الباشا وبين الامير يوسف ، او لعل الشيخ ضاهر الزيداني قد امتدت أطماعه الى هنا ؟»

فقال الدمشقي : «لا هذا ولا ذاك ، ولكن النكبة جاءتنا من الخارج، ولعلك تسمع بالمماليك الذين يحكمون الديار المصرية وكبيرهم الان علي بك ؟ »

فأجفل السيد عبد الرحمن عند سماعه اسم علي بك ، وتذكر ما ناله من النكبات على يديه ، فقال وهو يشرق بدموعه : «نعم سمعت بأولئك المماليك وكبيرهم المذكور . ولكن ما علاقتهم بهذه البلاد ؟»

فقال الدمشقي : «لقد ارسل علي بك هذا حملة لفتح هذه البلاد والاستيلاء عليها . وسمعنا ان هذه الحملة كثيرة العدد والعدة ويتولى قيادتها محمد بك ابو الذهب صهر علي بك . وقد استولت على سواحل سوريا وما فيها من السفن بمساعدة الشيخ ضاهر الزيداني ، كما سمعت بأنها فتحت طبريا ونابلس وغيرهما ، وبأنها الان في طريقها الى هنا ، ولهذا فالباشا وأهل المدينة كلهم في قلق عظيم ، ولعلكما مررتما بأسوار

المدينة وشاهدتما ما يجري فيها من اعمال الترميم والتحصين استعدادا للدفاع » •

* * *

استعاذ السيد عبد الرحمن بالله من شر هذا الخطر الجديد ، وتذكر هو وعلي خادمه تلك الليلة التي قضياها في الجامع الازهر مع اللاجئين اليه فرارا من الجنود الخارجين في تلك الحملة . ثم اراد معرفة الاسباب التي أدت الى ارسالها . فقال لمحدثه الدمشقي : «وما الذي دعا علي بك الى مد عدوانه الى هذه البلاد ، هل وقع خلاف بينه وبين الباشا هنا ؟»

فقال الدمشقي : «لم يحدث اي شيء يدعو الى هذا العدوان ، ولكن ذلك المملوك الجبار الطاغية تمرد على الدولة العلية وطرد الباشا ممثلها من مصر ، ثم لم يكفه هذا فبعث بصهره هذا القادم الينا لفتح الحجاز بحجة الانتصار لشريف مكة وتأديب الخارجين عليه • وعلى كل حال ما ارى الا ان الدوائر ستدور على الباغي باذن الله • وسوف ندافع عن بلادنا تحت راية مولانا الخليفة المعظم ، وما النصر الا من عند الله ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» •

وتحقق السيد عبد الرحمن بعد ما سمعه من الدمشقي في المقهى . ان في بقائه في دمشق اكبر الخطر على حياته ، ولكنه قال لنفسه : «كيف أغادر هذه المدينة قبل استكمال البحث عن ولدي فيها ؟» • وبقي صامتاً يفكر في هذا الامر وكله حيرة وقلق واضطراب •

ولم يسع خادمه الوفي الا ان يشاركه حيرته فبقي صامتا هو الاخر، وان استقر رأيه على ان يتبع سيده كظله الى كل مكان يحل فيه ، ليكون عونا له في كل ملمة ، ويفديه بحياته اذا اقتضى الامر ذلك •

اما الدمشقي فأدرك ارتباكهما ، وحسب انهما خائفان لانهما غريبان،

فمال على السيد عبد الرحمن وربت كتفه متلطفا وقال : «لا تخف يـــا سيدي . فأنت وصاحبك في حمانا ، وثق بأن كل دمشقي لا يتأخر عن تقديم حياته وكل ما يملك فداء لضيفه . واذا تنازلتما بترك الفندق الذي تنزلان به لتقيما معي بمنزلي حتى يقضي الله بما شاء في امر الحرب المنتظرة . فاني أعد ذلك شرفا لي وحسن حظ» .

فأعجب السيد عبد الرحمن بمروءة الرجل وشهامته ولطف عباراته مما يدل على طيب عنصره وكرم أخلاقه ، وشعر كأنما أزيح عن صدره حمل ثقيل ؛ فالتفت اليه وعيناه مغرورقتان بدموع التأثر وقال : «بورك فيك يا سيدي وفي اهل دمشق جميعا ؛ انكم حقا لاهل لكل كرامة وفخار ؛ وأعتقد إن الله ناصركم على اولئك الباغين» .

ثم نهض مستأذنا في الانصراف بعد ان شكر له أريحيته وكرمـــه وعرفه اسمه واسم علي ، كما عرف ان اسمه هو سليمان ، فألح عليهما في قبول دعوته اياهما الى الاقامة بمنزله ، ولما رأى اصرارهما على البقاء في الفندق اعطاهما عنوان منزله ليقصدا اليه في اي وقت ، ثم نهض ليوصلهما الى الفندق ويطوف بهما خلال ذلك بعض اسواق المدينـــة وشوارعها .

وما زال الثلاثة سائرين وهم يتبادلون الاحاديث حتى وصلوا الى باب توما . فخرج بهما سليمان الى ما هنالك من غياض وبساتين ، وداروا حولها حتى نهر بردى فما كادوا يشرفون عليه حتى شاهدوا اهل القرى في تلك المنطقة يعدون متصايحين وهم يسوقون امامهـــم ماشيتهم ، ووجهتهم المدينة . وسمعوا بعضهم يقولون : «جاء المماليك .. جـــاء المماليك » .

فعلم السيد عبد الرحمن ان جيش ابي الذهب وصل الى حـــدود المدينة ، ولم يسعه الا الرجوع هو وخادمه مع صديقهما الدمشقي الى

المدينة حيث أغلقت ابوابها بعد قليل ، وخرج جنود حاميتها الى الاماكن المعدة للدفاع فوق الاسوار ، وفي الابراج والحصون ، وتحصن كثيرون في القلعة • ولجأ الاهلون الى المنازل خائفين مترقبين •

وباتت دمشق تلك الليلة ساهرة تتقلب على أحر من الجمر ، ومـــا اصبح الصباح حتى دوت المدافع ، وتسامع الناس بأن المدينة توشك ان تسقط في أيدي الغزاة الفاتحين ، فقد جاءوها بجنود لا قبل لها بهـم مزودين بأقوى الاسلحة المعروفة في ذلك الحين ، وانضم الى الحملة المصرية جنود كثيرون من المتاولة والزيادنـــة والصفديين بقيادة اولاد الشيخ ضاهر •

ولم تمض بضعة ايام حتى دخل الفاتحون المدينة وانتشروا في انحائها للنهب والسلب ، وكانت قلعتها ما زالت صامدة للحصار ، ولكنها مـا لبثت ان سلمت هي الاخرى بعد قليل •

* * *

لجأ السيد عبد الرحمن وخادمه الى احدى الحجرات في الفندق الذي نزلا به ، وهما بملابس المغاربة • فلما مضت ساعات بعد فتـــح المدينة ، وخفت حدة النهب الذي قام به الجنود والفاتحون ، قال علي لسيده : «ألا تأذن لي في الخروج لتفقد الحالة خارج الفندق : عسى ان نجد فرصة مواتية لمغادرة هذه المدينة حتى لا نقع في يد ابي الذهب ؟»

فقال السيد عبد الرحمن : «لا ارى ان تخرج الان ، فالجنود ما زالوا يملأون الطرقات ، وقد يصيبك شيء من شرهم وطغيانهم • كما اني لا استطيع ان أغادر دمشق الا بعد ان اجد حسنا فيها او أتحقق انـــه ليس هنا » •

وبعد ساعة اخرى ، لم يطق علي صبرا على الانتظار في مخبئهما ،

فنهض وأتم ارتداء ملابسه المغربية وحمل الجراب على كتفه ، تأهبا للخروج وهو يقول : «ما اظن الجنود يطمعون في أسلاب مغربي في مثل هيئتي هذه» • ثم خرج من الفندق على ان يستكشف الحالة ويعود بعد قليل •

وما كاد يصل الى الشارع حتى وجد اكثر المتاجر قد حطمت ابوابها ونهب الجنود ما كان فيها ، كما وجد ان سكان المنازل ما زالوا في قلق وخوف واضطراب ، فحدثته نفسه بالرجوع ، لكنه خجل من ان يكون جبانا الى هذا الحد • وواصل السير حتى بلغ منعطفا الى يمينه في ذلك الطريق ، فوقف مترددا بين الدخول في هذا المنعطف وبين المضي في الطريق الذي هو فيه •

وفيما هو كذلك سمع صوت رجل يدعوه باسمه ، فأجفل وخفق قلبه بشدة مخافة ان يكون مناديه جنديا من جنود المماليك • ثم زايله بعض خوفه اذ تذكر انه متنكر في زي مغربي فلا يمكن ان يعرفه لاول وهلة اي احد من عارفيه •

وقبل ان يلتفت ليرى من ناداه ، كان هذا قد وصل اليه وألقى عليه التحية ، فاذا به سليمان الدمشقي الذي تعرف اليه هو وسيده في المقهى يوم مجيء الحملة • فرد تحيته بمثلها معربا عن سروره بلقائه •

فقال سليمان : «اين السيد عبد الرحمن ؟» • قال : «هو في الفندق » •

قال : «هيا بنا اليه ، فعندي له انباء سارة» •

فانبسطت اسارير وجه علي ، وقال له : «سرك الله يا اخي دائما ، ما هي هذه الانباء ؟»

فقال : «ستعلمها عما قليل حين نصل الى الفندق» •

فلم يسعه الا السكوت وانطلق عائدا معه الى سيده في الفندق •

لكن الفضول غلب عليه بعد بضع خطوات فعاد يقول لسليمان : «هل هذه الانباء خاصة بالمماليك الذين فتحوا المدينة اليوم ؟»

فقال له : «اصبر يا سيد علي وستعرف كل شيء بعد حين» .

وكان السيد عبد الرحمن ما برح جالسا في الحجرة والهواجس تدور في رأسه ، فلما وقعت عيناه على سليمان وهو داخل عليه مع علي ، نهض مستبشرا بقدومه وابتسامه ، وبعد ان تبادلا العناق والقبلات ، أجلسه بجانبه ، وراح ينظر الى وجهه مندهشا مما يلوح عليه من دلائل الغبطة والابتهاج ، وأراد ان يسأله عن السبب لكنه خجل ، وأدرك سليمان ذلك منه فقال له : «لماذا لا تسألني عما دعاني الى الابتهاج في مثل هـــذه الظروف ؟ »

فقال : «خشيت ان اكون طفيليا فأثقل عليك ، ولا شك في انـــك صاحب فضل وهمة ، فهات ما عندك بارك الله فيك» .

- ١٤ -

اثر الحبيب

قال سليمان الدمشقي لصديقه عبد الرحمن : «لقد علمت بأمر لم يعلمه أحد من اهل المدينة بعد ، ولو علموه لتبدل كدرهم واضطرابهـــم سرورا واطمئنانا» .

فأراد عبد الرحمن استطلاع هذا الامر واستبشر بمنظر صديقه اذ كان يتكلم وامارات الابتهاج تلوح على وجهه ، فقال له : «هل لك ان

تتكرم باطلاعي على هذا الأمر» .

فقال : «لما فتح المماليك المدينة وتسلموا القلعة ، فر الوالي ولم يعد يستطيع الاقامة خوفا على حياته ، ثم بعث الى محمد ابي الذهب قائد الحملة المصرية يطلب اليه الاجتماع لعقد شروط التسليم حسب المعتاد، فأجابه الى ذلك ؛ وكنت ممن ذهبوا مع الوالي الى مكان الاجتماع . وكان محمد ابو الذهب جالسا هناك متعجرفا منتفخا نفخة النصر ، وبين يديه اصحاب مجلسه من الامراء المماليك . فلما دخل عليه الباشا وقف له تأدبا ، غير ان مخايل الكبرياء كانت تلوح على وجهه .

«وكان لي صديق حميم بين رجال الباشا الذين وقفوا في انتظاره خارج الباب بعد ان ترجل عن جواده ؛ فأسررت اليه ان ينتبه لما يدور بين الاميرين ، لنرى شروط التسليم ، ولبثت بعيدا أنتظـــر ارفضاض المجلس وبعد قليل رفع الستر وخرج جميع الامراء المماليك الذين كانوا في مجلس محمد ابي الذهب ، ولم يبق الا هو والباشا ، فاستغربت ذلك وقلت : (لعل في الامر شيئا) . وما خرج الباشا من عند ابي الذهب ركب جواده حتى سارعت الى صاحبي وسألته عما كان فقال لي : (أبشر يـا سليمان لقد فرجها الله) . فقلت : (وكيف كان ذلك) قال : ان عثمان باشا سأل أبا الذهب بعد ان خلا اليه : (باسم من نكتب معاهدة التسليم ؟) . فقال ابو الذهب : (نكتبها باسم علي بك صاحب مصر) . فضحك عثمان باشا وقال : (أتفتح البلاد وتتجشم خطر الحروب والاسفار ويكون الفخر لذلك الجالس على عرشه في لقاهرة ؟. وهب انه امير البلاد وأنت مـن قواده فكيف تخرج من طاعة خليفة رسول الله سلطان البرين وخاقـان البحرين لنكون في طاعة بعض أمرائه النابذين طاعته ؟. ان مولانا السلطان مصطفى خان لاجدر بالطاعة ولاسيما انه لم يأت معك ولا مع الامير ما يدعو الى غير ذلك ، وسيان عندي ان تكتب شروط التسليم باسمك او

باسم علي بك ؛ ولكني ارى ان ليس من مصلحتك في شيء ان تذعن لامر علي بك وتخالف امر السلطان ؛ في حين ان علي بك لا يفضلك بشيء ؛ وقد فتحت له الحجاز والشام وهو جالس في القاهرة بين سراريه ومماليكه وخدمه وحشمه • وليس يخفى عليك ان فخر الفتح لا يعود على أمثالك من القواد العظام بقدر ما يعود عليه هو دون ان يتجشم في سبيل ذلك اي عناء • وهكذا يذهب كل تعبك أدراج الرياح ، ثم تكون في الوقت نفسه عرضة لغضب مولانا السلطان وانتقامه ، فضلا عن مخالفة الشرع ؛ لانكم انما تحاربون لتنصروا الافرنج على المسلمين ، وانما ساعدتكم ملكة المسكوف لكي تنال بغيتها وتنتصر على المسلمين في بلاد الروملي • وهب انكم فتحتم الشام والحجاز فأين هذه البقعة الصغيرة من المملكة العثمانية الواسعة الاطراف ؟ وأين جنود الحجاز والشام من الجيوش العثمانية المظفرة التي فتحت العالم بسطوتها وبطشها وشجاعة قوادها ؟)

«فمال محمد ابو الذهب الى الاذعان ، واستشار الباشا فيما يفعل ؛ فأشار عليه بأن يقلع عن الانقياد الى علي بك ويعود الى طاعة خليفة الرسول وظل الله على الارض سلطان البرين وخاقان البحرين ؛ وبذلك ينال فخرا عظيما وينجو من الاخطار ومشاق الاسفار •

«فصمت ابو الذهب قليلا وأطرق مفكرا ، ثم رفع رأسه وقال : «لقد نطقت بالصواب)• ثم طلب اليه عثمان باشا ان يقسم على السيف والكتاب ليكونن مخلصا للدولة العلية ويكف عن حربها ، ففعل» •

فقال عبد الرحمن لسليمان الدمشقي : «وماذا تم في الامر بعد ذلك؟»

قال : «انني عدت الى معسكر المصريين على اثر هذا الذي سمعته، فرأيت خيمة الامير مغلقة ، والجنود المصريين في هرج ومرج لكنهم قد كفوا عن الاذى • ثم دنوت من خيمة محمد ابي الذهب ، واسترقت

السمع دون ان يشعر بي احد ، فسمعته يخاطب أمراءه قائلا : (انكم تشكون مشقة الاسفار وأخطار الحروب ، وما ارى الا ان علي بك يريد اعدامنا بهذه الكتب التي يبعث بها الينا لكي نقذف بأنفسنا في أتون الحرب ، وكأنما جبلنا من تراب وجبل هو من تبر ، ولذلك لا يشفق على حياتنا ولا على نسائنا وأولادنا الذين تركناهم في مصر لنسير في بلاد الله ، بينما هو يعيش منعما بين حريمه وسراريه) .

«ثم استطلع رأيهم ، ففوضوا الرأي اليه فقال : (ارى ان نعود الى بيوتنا ونكف عن الحرب وعن نبذ طاعة مولانا السلطان وها أنذا أقسم لاحافظن على هذا العهد) . فردد الجميع هذا القسم ، ولم يسعني بعد هذا الا ان أسجد شكرا لله على نجاتنا من حكم المماليك ؛ ثم اسرعت لاطلعك على ذلك» .

* * *

كان سرور عبد الرحمن عظيما بما سمعه من صاحبه الدمشقي ؛ ولم يتمالك ان رفع يديه الى السماء وقال : «تباركت يا رب . ولك الحمد. ها قد انقلب الظالمون على أعقابهم وستقوم الفتن بينهم فيبيد بعضهم بعضا» .

ثم التفت الى سليمان وقال له : «انكم من اهل هذه المدينة ، ونجاتها تهمكم اكثر مما تهمني ، ولكني اؤكد لك يا اخي ان فرح اهل دمشق كافة لا يوازي فرحي بحبوط مسعى هؤلاء المماليك !»

وسكت وقد ملأت الدموع عينيه ، فلم يجرؤ سليمان على مخاطبته وبقي صامتا يتأمل حركاته ، ثم عاد عبد الرحمن الى الحديث فقال : «اعذرني يا اخي اذا رأيت في هذا الضعف ؛ لان هؤلاء المماليك نغصوا عيشي وشتتوا شملي واغتصبوا املاكي وأموالي وأبعدوا عني ولدي».

واغرورقت عيناه بالدمع .

فتعجب سليمان ، وود لو يقف على تفصيل ذلك فقال : «ولا شك في ان هؤلاء القوم قد أمعنوا في الظلم والفساد ، ولسوف ينالون جـــزاء اعمالهم ، ولكن هلا اطلعتني على تفصيل امرهم معك لعلي استطيـــع مساعدتك ؟ »

فأراد عبد الرحمن الكتمان ، ثم رأى ان في الادلاء بقصته الـى صديقه الدمشقي ما قد يفرج كربه ، فتنهد وقال : «آه يا اخي ! لقد كنت أوثر كتمان هذا الامر ولكنني آنست منك مروءة واخلاصا فملت الـى الشكوى اليك تسئلا بقول القائل :

«ولا بد من شكوى الى ذي مروءة   يواسيك او يسليك او يتوجع»

وقص عليه حكايته من اولها الى آخرها ، فلما انتهى من ذلك قـال سليمان : «والله ان حكايتك لما يتفطر له القلب ، فهل انت مؤمل ان تجد ولدك هنا ؟»

قال : «لولا الامل ما تجشمت الاخطار ومشاق الاسفار» .

قال : «اذن هيا ننزل الى المدينة لعل الله ان يفتح لنا باب الفرج او يأتينا بأمر من عنده» .

فنهضوا وخرجوا الى الاسواق واذا بأهل المدينة قد غمرهم الفرح اذ سمعوا مناديا ينادي بالامان وعودة الناس الى اعمالهم لان جنـــد المماليك عائدون من دمشق .

فتحقق عبد الرحمن صحة رواية صديقه فقال له : «ارى ان نذهب خارج المدينة حيث يجتمع الناس لمشاهدة عودة الجنود المصريين ، فلعلي اجد ولدي بينهم» فوافقه على ذلك ، وسارا حتى خرجا الى حيث معسكر ابي الذهب ، فاذا بالمماليك والمغاربة يقوضون الخيام ويحملون الاثقال، وأهل دمشق ينظرون اليهم ويعجبون لهذا الانسحاب السريع . ولم يأت

الغروب حتى سارت الحملة عائدة من حيث اتت •

اما عبد الرحمن فكانت عيناه شائعتين في الجماهير لعله يشاهد ولده حسنا ، ولكنه لم يقف له على اثر•

ولبث بضعة ايام في المدينة يواصل البحث عنه حتى يئس من لقائه ، فودع صديقه الدمشقي وأخبره بأنه اعتزم السفر ، فتأثر هذا وحـــزن لحبوط مسعاه ، ثم قال له : «اني والله لن يهدأ لي بال حتى أعلم بوجود ولدك ، وقد عرفت شكله وملامحه وسأراقب من اراهم من الغرباء فلعلي اقف على خبره فأبلغك ذلك ، ولكن اين تكون ؟»

فقال عبد الرحمن : «اني ذاهب الى عكا الان ، ولا أعلم ايـــن تسوقني المقادير» •

قال : «ألا ترجو ان تعود الى مصر بعد ذلك ؟» • قال : «لا أدري»•

قال : «ان الله يدبر الامر كيف شاء ، وهو لطيف بعباده رحيـــم خبير » •

وعلى اثر ذلك سار عبد الرحمن مع خادمه على جملين في قافلة كانت سائرة الى صيدا على ان يسيرا من هناك الى عكا •

* * *

ما زالت القافلة تواصل سيرها وعبد الرحمن وخادمه فيها ، وبعد ان قطعت القافلة بضع مراحل قال خادم عبد الرحمن له : «أتأذن لي فـــي كلمة ؟» قال : «قل ما بدا لك يا علي» •

فقال : «اننا أينما نتوجه نجد عدونا امامنا ، وقد تركنا مصر فرارا من ظلم علي بك ، فاذا جئنا عكا كنا في خوف من الشيخ ضاهر العمر، لانه حليفه ، وعلى هذا لا نستطيع الظهور هناك ، ثم ان العثور علـــى

سيدي حسن امر لا نقوى عليه الا بمساعدة الحكومة فهلا فكرنا في وسيلة تتقرب بها الى الشيخ ضاهر هذا» .

فقال عبد الرحمن : «اني اذا ذهبت اليه بنفسي وأطلعته على امري، اخشى ان يأمر بقتلي» .

فقال علي : «خطرت لي فكرة اذا أذن لي مولاي اطلعته عليها» .

قال : «قل ما بدا لك» .

قال : «ارى ان تلتمس مساعدة الاميرال الروسي قائد السفن الروسية في البحر المتوسط ، فقد آنست منه ميلا اليك يوم كنا في ضواحي بيروت ، ولو انك سألته ان يعطيك كتاب توصية الى الشيخ ضاهر العمر ما أظنه يأبى ذلك . ولا شك في ان الشيخ ضاهرا يعمل بها لما بينهما من التحالف ، فما رأيك ؟»

فتهلل وجه عبد الرحمن استبشارا بهذه الفكرة وقال : «بورك فيك يا علي . لقد نطقت بالصواب ، وليس افضل لنا من هذه التوصية لدى الشيخ ضاهر ، لكن كيف نعرف مكان العمارة الان ؟»

قال : «اذا وصلنا الى مدينة صيدا نستفهم عن مكانها ونسير اليها والاتكال على الله» . قال : «حسنا» . ثم تذكر فقد ولده فعاد اليه قلقه وقال : «آه يا حسن !. هل يقدر لي ان القاك ؟»

فقال علي : «صبرا يا سيدي ، ان قلبي يحدثني بأننا لا نلبث ان نلتقي به ، اذ قد تحقق لدينا من ذلك الشهم عماد الدين انه لا يزال على قيد الحياة ، ولعله الان في عكا لاننا لم نجده في دمشق ، واذا كان هناك فسيلتقي به عماد الدين ويخبره بأمرنا فيبقى هناك في انتظارنا» .

فقال عبد الرحمن : «كل شيء بيد الله . وأرى ان هذه القافلة بطيئة السير وأحمالها ثقيلة ، فالافضل ان نسبقها» .

قال : «لا يا سيدي ، لاننا لا نأمن المسير وحدنا في الطريق ،

فاللصوص فيه كثيرون من البدو وغيرهم ، ولا بد لنا من مرافقة القافلة اذ نكون في أمن معها» •

قال : «حسنا ، ولكن هناك امرا اخر قد اهمني كثيرا» •

قال : «ما هو ؟»

قال : «رأيت في الحلم يوم خروجنا من دمشق كأني لقيت سيدتك في ثياب سوداء ، فقالت لي عبارة لا ازال أذكرها وهي (اني لا ازال حية أنتظرك فمتى تأتي الي ؟) • فتذكرت ما وعدني به السيد المحروقي بمصر من انه سيطلعني على امرها اذا لم يتحقق قتلها ، فكيف نستطلع حقيقة ذلك ؟»

فقال : «اذا شئت فاني أذهب الى مصر ، متى وصلنا الى عكا ، وأسأل السيد المحروقي في ذلك الامر ، عسى الله ان يحقق املك» •

قال : «بورك فيك يا علي ، ولعل الله قد قضى بجبر قلوبنا بعد ما قاسيناه من العذاب» •

وبعد مسيرة بضعة ايام وصلا الى صيدا ، فدخل عبد الرحمن المدينة وسار توا الى البحر فاذا بالعمارة الروسية راسية في الميناء ، فاكترى قاربا وقصد الى دارعة الاميرال وطلع اليها ، فسر الاميرال بلقائه وبش في وجهه • أما هو فأظهر الانقباض فسأله الاميرال عن امره فطلب ان يخاطبه على انفراد ، فخلا اليه في غرفة هناك ، حيث قص عليه عبد الرحمن قصته وطلب اليه ان يوصي به الشيخ ضاهر العمر ، فرد عليه قائلا : «هذا امر هين وسأعطيك كتابا اخر الى علي بك» •

ثم أمر بأن يكتب له كتابان احدهما الى الشيخ ضاهر والاخر الى علي بك يؤكد فيهما التوصية به • ثم ختم الكتابين بخاتمه وسلمهما لعبد الرحمن قائلا : «مهما يصبك من ضيق فانا نفرجه عنك» • فقبل عبد الرحمن يده وخرج شاكرا • ثم ركب في قارب وعاد الى صيدا فاذا

بعلي ينتظره على الشاطىء فلما رآه أسرع اليه وسأله عما تم ، فأخبره بما كان فسر كثيرا . ثم عادا الى الخان وباتا تلك الليلة على أهبة السفر . وفي صباح اليوم التالي ركبا من صيدا يريدان عكا .

* * *

استيقظ حسن من نومه في تلك الحجرة الصغيرة على صوت الناقوس يدعو الناس الى الصلاة ، فنهض وخرج من الدير الى حيث وقف على مرتفع وأخذ ينظر الى ما حوله فاذا هو محاط بسهول من الرمال يحدها من الغرب البحر الذي لا ينفك يدمدم ليلا ونهارا ، ومن الشرق جبل لبنان وما في سفحه من الغياض والبساتين والقرى .

ولما عاد الراهب من الصلاة قال لحسن : «هيا بنا لأريك المغارة التي كان يبيت بها النبي ايليا ؟» . ثم قاده الى باب صغير فتحه ، ونزل به بضع درجات الى مغارة صغيرة فيها صورة صغيرة على قماش ، فقبلهـــا الراهب قائلا : «هذه هي صورة النبي ايليا صاحب العجائب والمعجزات» .

فقال حسن : «انه عليه السلام مشهور بالكرامات والعجائب» . ثم حانت منه التفاتة الى ركن من أركان تلك المغارة . فشاهد رجلا مضطجعا فقال : «من هذا النائم ؟» . فأشار اليه الراهب ان يسكت فسكت وقد استولت عليه الرهبة من منظر تلك المغارة ومنظر ذلك الراهب المسن بما عليه من اللباس الخشن .

ولما خرجا قال له الراهب : «ان ذلك الرجل الذي رأيته نائما مصاب بروح شريرة وقد جاء ونام في هذه المغارة لتخرج منه تلك الروح» .

ثم عادا الى مسطبة مشرفة على البحر ، وجاءه الراهب بغليون ملأه تبغا وأشعله له فأخذ حسن يدخن ثم قال للراهب : «ألا تستغرب مجيئي اليكم وأنا لست مسيحيا ؟»

قال : «ان هذا المكان يا ولدي يأتيه الزائرون من سائر الطوائف والملل بغير استثناء» .

قال : «وكم تبعد مدينة صيدا من هذا المكان ؟»

قال : «مسافة يوم تقريبا ، والطريق على شاطىء البحر ومعظمها في الرمال » .

قال : «وهل يستطيع الرجل ان يسير منفردا ؟»

قال : «قد يستطيع ذلك ولكن الطريق لا يخلو من الخطر ولاسيما في هذه الايام» .

فقال : «ما الداعي لزيادة الخطر الان ؟»

قال : «الداعي الى ذلك كثرة خطايانا وعدم سيرنا على مقتضى اوامر الله سبحانه وتعالى ، حتى اختلف حكامنا وقام الخصام بينهم ونشبت الحروب ، فان صيدا تابعة لحكومة لبنان ولكنها دخلت في حوزة الشيخ ضاهر العمر الزيداني والي عكا . وهذا الرجل قد نبذ طاعة الدولة العلية وطمع في السلطة وقامت بين رجاله ورجال الامير يوسف حاكم لبنان حروب كثيرة في اماكن مختلفة ، وفي السنة الماضية جاء ذلك الامير الشهابي بجند من لبنان ومن عسكر الدولة لفتح صيدا ، فأخرج منها الدنكزلي حاكمها من قبل الشيخ ضاهر ، وبعد حصار اسبوع جاءت المراكب الروسية التي هي في هذا البحر بايعاز من الشيخ ضاهر وضربت جنود الامير يوسف بالقنابل وشتتها . اما هذه السفن – ومن بينها خمس سفن كبار – فانها مرسلة من كترينة ملكة المسكوف لمساعدة الشيخ ضاهر في كل ما يريد ، وذلك لانها حليفته ضد الدولة العلية» .

فقال حسن : «اذن الطريق خطر ولا يستطيع المرء ان يسير وحده فيه ؟ »

فضحك الراهب حتى اهتزت لحيته ثم قال : «بل لا يستطيع نفر من

الناس ان يسيروا في هذه الاصقاع آمنين من الخطر ، وترانا لذلك في ضيق شديد» •

فقال حسن : «حقا ان هذا لما يضيق عليكم ، اذ يقل عدد الوافدين من الزوار وغيرهم» •

فقال الراهب : «ليس ذلك فقط ما نشكوه ؛ ولكن من عادتنا . ومثلنا في ذلك جميع الاديرة ، ان نبعث كل سنة وفدا من الرهبان يطوفون البلاد المجاورة والبعيدة لجمع النذور التي ينذرها اصحابها باسم صاحب هذا الدير قدس الله سره ؛ لكننا في هذه الايام لا نستطيع ارسال احد ، وقد مضت علينا بضع سنين لم نرسل احدا الى ان كانت هذه السنة فبعثنا بعض رجالنا يطوفون البلاد لجمع النذور ؛ وقد مضى عليهم بضعة اشهر دون ان يرجعوا ، فترانا من اجل ذلك في قلق عظيم عليهم لئلا يكونوا قد أصيبوا بسوء من اللصوص في الطريق بعد نهب ما جمعوه من هذه النذور» •

فقال حسن : «لقد اخطأتم اذن يا سيدي بارسالهم» •

قال الراهب : «اننا لم نرسلهم الا بعد ان رأينا ارسالهم ضروريا ، لاننا نرسلهم ايضا للاديرة الاخرى في الاقطار البعيدة لجمع المساعدات، وللطائفة الارثوذكسية أديرة عديدة في اماكن مختلفة فيساعد غنيها فقيرها » •

فقال حسن : «ولكن ألا تخافون وأنتم في هذه البرية من ان يسطو عليكم اللصوص او قاطعوا الطرق ؟»

فقال : «قلما خفنا ذلك لان الله يحرس اماكن العبادة» •

فقال حسن : «وهل للمسلمين مكان مثل هذا في هذه الانحاء ؟»

قال : «ان لهم مقاما قديم العهد جدا على مقربة منا ، يقال له مقام الشيخ الاوزاعي ، وقد مرت عليه أجيال عديدة والزائرون من المسلمين

يقصدونه كما يقصدون هذا الدير» •

فتاقت نفس حسن لزيارة ذلك المقام ، لانه كان قد قرأ كثيرا عن كرامات الشيخ الاوزاعي ، فقال : «هل هو بعيد من هنا ؟»

قال : «لا •• فهو لا يبعد الا مسافة تدخين غليون» •

قال : «هل يمكنني الذهاب اليه ؟»

قال : «نعم اذا مشيت على هذا الرمل مشرقا ، فانك تشرف عليه حالا ، وهو قائم في قرية يقال لها قرية منتوش» •

فقال : «ألا ترسل معي احدا من خدم الدير» •

قال : «لك ذلك» • ثم نادى احد الخدم فجاء وسار مع حسن حتى اشرفا على قرية صغيرة في وسط تلك الرمال ، ثم وصلا اليها فاذا هي غاية في الصغر ، وفي جانب منها قبة فيها ضريح ، فسار حسن توا الى المقام وقرأ الفاتحة ، ثم تذكر ما جاء من اجله الى تلك الديار فانقبضت نفسه وتذكر أباه ووالدته فأخذ يصلي ويتضرع الى الله تعالى ألا تحبط مساعيه •

وبعد ان أتم الصلاة والدعاء ، اعطى خادم الضريح بعض المال ، ثم عاد وقد انبسطت نفسه وتجددت آماله بلقيا والديه ، رغم ما كان يظن من قتل والدته ، وأحس كأنه اصبح في عالم غير الذي كان فيه •

فلما عاد الى الدير رأى عند بابه جمالا كأنها قادمة من سفر طويل ، فتوسم الخير وأسرع الى الدير ، فلقيه وكيله منبسط الوجه قائلا : «نحمد الله يا ولدي ، ان وفدنا قد عاد من سفره بخير» • وقاده الى غرفة من غرف الدير ليريه اياهم ، فوجدهم جالسين والشمس قد لوحت وجوههم والاسفار قد أنهكتهم ، ورأى بين أيديهم كيسا علم ان فيه التحف التي اتوا بها •

فجلس اليهم وأخذ يسألهم عن الامن في الطريق فقال احدهم : «ان

أشد الطريق خطرا ما بين مصر والشام» .

فقال : «هل وصلتم الى مصر ؟»

قال : «نعم ذهبنا اليها وعدنا منها بخير» .

فقال : «وهل اهل مصر ينذرون لهذا الدير ايضا ؟»

فقال الوكيل : «قلت لك يا ولدي اننا نرسل هؤلاء ليس لجمع النذور فقط ولكن لجمع المساعدات من الاديار الاخرى ، وهناك بقرب القاهرة دير يوناني ، وبعض الاديار القبطية تعودنا تلقي المساعدة منها» .

فتأوه حسن لتذكره تلك البلاد التي فقد فيها والديه ، وقال : «عسى ان تكونوا قد نلتم ما اردتم ؟»

فقال احد الرهبان القادمين : «اننا لقينا في دير مار جرجس اكثر مما نلناه من سواه ، وقد وقع لنا فيه اتفاق غريب مع راهبة من راهباته . وذلك اننا نزلنا هناك ، وبعد ان اتتنا الرئيسة بالمساعدة المعتادة ، جاءتنا راهبة يظهر انها ليست يونانية مثل بقية الراهبات هناك اذ كلمتنا باللغة المصرية ، ولما علمت بأننا قادمون من الشام بكت ثم اخرجت من جيبها عقدا من الكهرمان الثمين وقالت : (اني أقدم هذا العقد لمقام النبـــي ايليا ، واذا وجدت ضالتي فسيكون علي نذر اخر كبير) .

«فتعجبنا من قولها وأردنا الاستفهام منها فأومأت الرئيسة الينا آلا نسألها فسكتنا ، ثم لما خلونا الى الرئيسة أسرت الينا امرا لا يمكننا ذكره ولكننا صلينا من اجلها صلاة خاصة وتضرعنا الى الله ان ينيلها مرامها لاننا رأيناها منكسرة القلب عسى ان يستجيب الله دعاءنا» .

فأحس حسن بانقباض ، وصمت . اما الراهب فأخرج من جيبه عقد الكهرمان وقدمه لوكيل الدير لينظر اليه ، فما رآه حسن حتى خفق قلبه ، وتأمله فاذا هو عقد والدته بعينه ، وظهرت على وجهه امارات الدهشة ، فتعجب الحاضرون من ذلك ولبثوا ينظرون اليه وهو يتأمل العقد ويقبله ،

ثم رفع رأسه الى الراهب وقال له وقد شرق بدموعه : «هل رأيت صاحبة هذا العقد في ذلك الدير ؟» • قال : «نعم» •

فقال حسن : «هل تحققت وجهها جيدا ؟»

قال : «لم أتحققه تماما ، ولكنني علمت من مجمل ملامحها ومن الوشم الذي على صدغها انها من اهل مصر» •

فقال حسن وقد وثب من مكانه : «هل عاينت الوشم الذي على صدغها ؟• أهو ثلاث نقط متوازيات ؟»

فنظر الراهب الى حسن متعجبا وقال : «ان الوشم الذي على وجهها كان على هذه الصورة حقيقة فكيف عرفت ذلك ؟»

قال حسن : «هي والدتي» • ثم اخذ في التأوه والبكاء ، فبهت الجميع . ثم قص حسن على الرهبان قصته ، فعلموا ان أباه هو ضالة تلك السيدة ، وانها تعتقد ان ابنها قتل وليس على قيد الحياة •

فدنا احد الرهبان من حسن وطلب الانفراد به ، فلما انفردا قال له : «بما اني قد عرفت ان تلك السيدة هي والدتك ، فأخبرك بأن السر الذي أسرته الى الرئيسة انما هو حكاية فقدكما ، وقد اوصتني بأن أبحث لها عن ابيك وأخبرها • فهل تعرف عنه شيئا ؟»

فقال حسن : «وهل ذكرت لك شيئا عن ولدها ؟» • قال : «لا» •

قال : «ذلك لانها قد تحققت قتلي» • ثم اخذ في البكاء •

فقال له الراهب : «خفف عنك يا ولدي وأخبرني بما تعرفه عن ابيك ؟ »

قال : «لا أعرف عنه سوى انه جاء الى عكا هاربا من وجه حكامنا المماليك ، وأنا الان لم اصل الى تلك المدينة ، وقد كنت عازما على المسير اليها منذ ايام ولكن خطر الطريق حال بيني وبين ما أريد» •

ثم صمت وأطرق مفكرا في ذلك الاتفاق العجيب ، وبعد قليل رفع

رأسه وقال : «من لي بأن اطير الى القاهرة وأشاهد تلك الوالـــدة المسكينة وأعلمها بأني لا ازال على قيد الحياة ، لا شك انها حالما تراني تقع في دهشة وربما اصابها جنون لانها رأت بعينها الجلادين يقودونني بحبل ليغرقوني في البحر . وكيف تحلم بأني لا ازال حيا وهي لو علمت ذلك لطارت الي بأجنحة الشوق ، فكل همها الان لقاء ابي» . ثم رفع يديه نحو السماء ودعا الله قائلا : «يا رب العالمين ، اسألك بجاه سيـد المرسلين ألا تحرمنا من الاجتماع مرة ثانية في بيت واحد ، انك جابر قلوب المستضعفين» .

فقال الراهب : «آمين يا رب آمين» . ثم خرجا الى حيث كـــان الباقون . وعلم حسن ان لا بد من الانتظار حتى تمر قافلة فيصحبها الى هناك لان الطريق لا يخلو من الخطر . فلم يسعه الا الانتظار على نار .

***

خرج عبد الرحمن من صيدا مع خادمه برفقة جماعة يريدون عكا ، فمروا بمدينة صور التي كانت منذ القدم اعظم مدن سوريا قوة وثروة ، ومكثوا فيها يوما ثم ساروا منها يريدون عكا ، فمروا بالناقورة وهي جبل صخري مرتفع واقع على شاطىء البحر ، يخترقه طريق يصعب سلوكها لوعورتها وتعرضها لهجمات اللصوص . واذا نظر المار فيها الى أسفل الجبل هاب ارتفاعه عن البحر وسمع صوت الامواج تلطم قاعدته . واذا نظر الى فوقه خيل له ان الجبل سيسقط عليه . فقطعوا ذلك الجبـــل بسلام وما زالوا يجدون السير ليصلوا الى المدينة قبل الغروب ، مخافة ان تغلق ابوابها قبل وصولهم . لكنهم امسى عليهم المساء قبل ان يدخلوها ، وكانوا بقرب بابها الشرقي فقال التجار : «نخشى اذا سرنا الى المدينة ان يكون الباب مغلقا ، فلنبت الليلة هنا وفي الغد ندخل المدينة» . فنصبوا

خيامهم وباتوا ليلتهم ساهرين مخافة ان يعتدي عليهم احد .

وكان عبد الرحمن وخادمه اكثر الجميع حذرا ، فقضوا معظم الليل جالسين ، ولما اصبح الصباح دخلوا المدينة جميعا ، فسار عبد الرحمن توا الى الخان الذي كان قد نزل به في المرة الاولى ، فتلقاه صاحبه بالترحاب وأخلى له غرفة من غرفه ، فمكث بها ذلك اليوم للاستراحة والاستعداد لمقابلة الشيخ ضاهر وعرض كتاب الاميرال عليه . وكان يخاف حبوط مسعاه ، فكان تارة يفضل كتمان امره حتى يقابل صديقه عماد الدين ، وطورا تحدثه نفسه بالمسارعة الى مقابلة الشيخ ضاهر ، فلبث في المدينة وهو بلباس المغاربة اسبوعا ، وأخذ يجول في اسواقها ويسير الى مقر الحكومة لعله يلقى عماد الدين ، لكنه لم يقف له على اثر ، فاعتزم الانتظار حتى يلقاه ويستشيره في امر الكتاب .

ثم سمع ان الشيخ ضاهرا خرج في فرقة من رجاله لمحاربة بعض اللبنانيين في بعض الجهات ، فلبث ينتظر عودته وهو يسعى جهده في البحث عن عماد الدين وحسن ، فمضى شهر ومعظم الشهر الثاني دون ان يعلم شيئا جديدا حتى كاد ييأس ، ثم ذهب يوما الى قصر الشيخ ضاهر وقد التف ببرنسه وخادمه يحمل له الجراب ايذانا بأنه طبيب مغربي يكتب الحجاب ويكتب الكتاب الخ . فلما أشرف على القصر عند الزاوية الشمالية لسور المدينة تعجب لهول منظره لانه رآه أشبه بالقلاع لعلو أسواره ومتانة بنائه ، وفيما هو يتأمل ذلك البناء وقد هم بالدخول رأى احد الجند قادما وعرف انه الهجان الذي ذهب الى بيروت برسالة الشيخ ضاهر الى الاميرال الروسي ، وكذلك عرفه الجندي فحياه وسأله عن امره فقال : «اني أزاول مهنة الطب هنا» . وأخذ علي يطنب للجندي في مدح مهارة سيده في تلك المهنة . وسأله عبد الرحمن عن عماد الدين فقال : «انه سار برفقة الشيخ ضاهر ولا يلبث ان يعود» .

فمكث عبد الرحمن في المدينة اسبوعا اخر وفي الاسبوع التالي سمع الناس يتحدثون بقرب مجيء الجند ، وخرجت الموسيقى والعساكر لملاقاتهم الى خارج المدينة ، فمكث هو في الخان حتى تحقق عودتهم فخرج مع خادمه الى قصر الشيخ ضاهر لعله يلقى صديقه عماد الدين ، وهناك لقيه الهجان فأخبره ان عماد الدين مصاب بجرح ويقيم بمنزله على السور فقال : «أذهب اليه لعلي أطببه فأكافئه بعض المكافأة على فضله» . وسأل الرجل عن بيته فسار به الى طابية من الطوابي المبنية على السور ، وهناك دخل غرفة شاهد فيها عماد الدين ممددا في الفراش ، لكنه ما كاد يراه حتى نهض كأنه لا يشكو ألما وسلم عليه وأجلسه بجانبه . اما علي فبقي خارجا .

ولما استتب بهم المقام سأله عبد الرحمن عن حسن فقال : «لقد مررت بكل السواحل ولم اقف له على خبر ، فلعله أبطأ في الطريق . وأنت ماذا فعلت ؟» . فقص عليه القصة من اولها الى اخرها .

فقال : «وهل اتيت بتوصية الى الشيخ ضاهر ؟» . قال : «نعم ولكنني لا ازال خائفا منه» .

قال : «وهل تستطيع التطبيب حقا ؟» . قال : «نعم» . فقال : «اني مصاب بجرح خفيف ولكنني سأشيع اني تألمت منه كثيرا وانك قد شفيتني بمهارتك ، وعند ذلك تتقرب من رجال الشيخ ضاهر وأنا أعلم ان ولده ناصيف مصاب بجرح خفيف ايضا في ساعده ، وقد قتل طبيبه هذه المرة فاذا شفي على يدك نلت حظوة في عينيه وربما عينوك طبيبا للقصر ، وعند ذلك تتمكن من استخدام الشيخ ضاهر في البحث عن ولدك» . ثم أفهمه الكثير من عادات ناصيف وطباعه ، وأعطاه مقدارا من مرهم البيلسان في قارورة لكي يستعمله في تطبيبه .

وأخذ منذ ذلك الحين يتظاهر بتثاقل المرض عليه وأشاع في القلعة

انه ظفر اتفاقا بطبيب مغربي أظهر في تطبيبه مهارة كبرى حتى شفي • فذاع ذلك بين الجند والامراء في القلعة والقصر حتى بلغ الشيخ ضاهر! وأولاده ، فبعث ناصيف وهو في فراشه يدعو اليه عماد الدين ، فلما ذهب اليه سأله قائلا : «سمعت بطبيب مغربي قد شفاك من مرضك بعد ان ثقلت وطأته عليك فهل ذلك صحيح ؟»

قال : «نعم يا سيدي» • وأخذ يطنب في مدح مهارة طبيبه وفراسته الى ان قال : «وهو ليس طبيبا فقط ولكنه عالم بالفراسة ويعالج الداء بدواء واحد فقط وتظهر النتائج بسرعة» • فطلب منه ان يدعوه الى مقابلته •

فذهب عماد الدين وأتى بعبد الرحمن بعد ان اخبره بكل شيء ، فدخل وحيى ، فقال له الشيخ ناصيف : «قد سمعنا بمهارتك في الطب فجئنا بك لتطبيب جرحنا ، فهل انت واثق بنفسك» • قال : «ان الشفاء من عند الله وأرى اني بمعونته تعالى استطيع شفاءك» •

فأعجبه كلامه فقال : «هذا ساعدي وهذا جرحي فما هو الدواء عندك للجروح ؟ »

قال : «ان البلسم احسن الادوية له ، وعندي منه قارورة احضرتها معي من بلاد الغرب لم أستخدمها في شفاء جرح غير جرح عماد الدين ، فاذا أذن لي مولاي طببته بها» • قال : «افعل» •

فنادى عبد الرحمن خادمه عليا فجاءه بالقارورة ففتحها وأخرج من الجراب ريشة صغيرة من ريش النعام غمسها في المرهم ومسح بها الجرح بعد غسله ، ثم لفه بعصابة وقال : «يشفيك الله يا سيدي باذنه تعالى» • وما زال يتردد عليه حتى شفي تماما وقال له : «اني معجب بك ايها الطبيب ، فهل انت في هذه الديار من قديم ؟» • فقال : «لم آت اليها الا حديثا ، ولكني طببت كثيرين وشفوا على يدي باذن الله لانه هو

الشافي ، وقد رافقت امير المراكب الروسية مدة وسرت معه في السنة الماضية من هنا الى مصر ، وقد أعجب بي وأعطاني كتاب توصية للامير الجليل الشيخ ضاهر» .

فقال : «وأين كتاب التوصية هذا ؟»

قال : «هو في جيبي» . وأخرجه وناوله اياه فأخذه وقرأه فسر جدا وقال : «ان لهذا الامير صداقة وطيدة مع ابي ، ولا أشك في انه حالما يقرأ كتابه . ويسمع مني عن مهارتك في الطب سيعينك طبيبا في القصر ، لان طبيبنا قتل في الحرب هذه المرة» .

فهم عبد الرحمن بيد ناصيف وقبلها وقال : «اني على كل حال من عبيد مولانا» .

فأخذ ناصيف الكتاب ، وطلب منه ان يعود اليه في الغد ، فلما جاء في الموعد قال له : «ان ابي يريد ان يراك» . قال : «سمعا وطاعة» . وسار خلفه الى القاعة التي يجلس فيها الشيخ ضاهر ، فوجده جالسا في صدرها بعمامته وجبته وقفطانه ، وكان طاعنا في السن أشيب الشعر عريض اللحية غليظ الحاجبين متجعد الوجه واسع العينين حادهما سريع الحركة ، مع كبر سنه لانه كان اذ ذاك في نحو التسعين من العمر ، ولكنه كان في نشاط الشبان يركب الخيل كأحسن الفرسان ، وكان ذا هيبة ووقار . وقد جلس على وسادة ثمينة بقرب نافذة مشرفة على البحر ، والى جانبه وزيره ابراهيم الصباغ المسيحي في أفخر ما يكون من اللباس وهو يقرب سنا منه ، والى كل من الجانبين بقية اعضاء المجلس من الامراء والمشايخ .

وكانت القاعة مفروشة بالبسط والسجاد ، وفي يد الشيخ ضاهر (شبق) طويل مرصع بالقصب حلي طرفه الاعلى بقطعة من الكهرمان ، وقد اخذ يدخن ما فيه من التبغ وينفخ الدخان في الغرفة ، وكذلك كان

يفعل الصباغ .

فعجب عبد الرحمن لعظم هيبة ذلك الرجل التي زانها الشيب وحدة النظر ، وهم بيده فقبلها وقبل يد الصباغ ، وكان قد سمع عن تقربه من الشيخ ضاهر ونفوذه لديه حتى اصبحت أزمة الاحكام في يديه وأصاب مالا طائلا ، ولم تبق فوق يده في الحكومة يد لان الشيخ ضاهر لم يكن يأتي عملا الا بمشورته . ثم وقف امامهما متأدبا فأشار اليه الشيخ ضاهر ان يجلس فجلس .

فخاطبه الشيخ ضاهر قائلا : «أأنت الـــذي جاء بكتاب الاميرال أورلوف ؟» . قال : «نعم يا سيدي» .

فقال : «وكيف وصلت اليه وماذا كنت تعمل في معيته ؟»

قال : «كنت في عكا منذ سنة او اكثر ، فسار بي بعض رجاله اليه. فلبثت في معيته وقتا أضرب له الرمل وأستخرج له الاسرار والمغيبات».

قال : «وهل لك اطلاع على ضرب الرمل والتنجيم ؟» . قال : «نعم يا سيدي» .

قال : «أريد ان أمتحنك بسؤال فاذا عرفته نلت مقاما رفيعا وكنت من حاشيتي ، واذا اخطأته جوزيت جزاء صارما لا يقل عن القتــــل فما رأيك ؟»

فخفق قلب عبد الرحمن وخاف ان يقع في مكروه لانه لم يكن قد مارس من ضرب الرمل شيئا غير انه كان يشاهد الرمالين في مصر مذ كان تاجرا وكان يلاحظ اعمالهم وقد قرأ شيئا عن تلك الصناعة حتى احب ممارستها .

وكأن الله قدر له ذلك اذ ذاك حتى ينتفع به في هذا الوقت ، ولما خاطبه الشيخ ضاهر في هذا الامر لم يمكنه الا اجابة طلبه لان رفضه يثبت كذبه على اهون سبيل ، بينما اجابته قد يترتب عليها نجاح مشروعه

فتشدد وقال : «نعم يا سيدي باذن الله تعالى» .

فصمت الشيخ ضاهر برهة وكل من في مجلسه شاخص الى ما يريد الاستفهام عنه وعبد الرحمن مختلج القلب ومرتعد الفرائص ولكنه أسلم امره الى الله وقال في نفسه : «اما ان اعوم واما ان أغرق والاتكال على الله» . فنظر اليه الشيخ ضاهر قائلا : «يهمني ان اعرف سبب رجوع محمد بك ابي الذهب عن دمشق بعد فتحها بغير داع يوجب ذلك ، وهذا امر قد شغل قلوبنا في هذه الايام فهل يمكنك معرفته ؟»

فاستبشر عبد الرحمن بالفرج لانه كان يعرف سبب ذلك الانسحاب معرفة جيدة ، فاشتدت عزائمه وأشرق وجهه ونظر الى الشيخ ضاهر وقال : «ان استخراج ذلك السر يحتاج الى مندل ، والاسرار عند الله يهبها من يشاء من عباده» .

فقال الشيخ : «اضرب لنا مندلا الان وأنت جالس بيننا» . وأراد بذلك ان يبقيه ويتحقق صدقه .

فقال عبد الرحمن : «أفي هذه القاعة يا سيدي ؟ . ان ضرب المندل يحتاج الى أوعية كثيرة والى نار وبخور ومياه» .

قال : «لا بأس ، اطلب ما تريد فنأتيك به» .

قال : «اعطوني وعاء كبيرا واملأوه ماء نقيا» . فجاءوه به . ثم طلب كانونا به نار ، وشيئا من البخور النقي فجاءوه بكل ذلك فقال : « لا ينقصني الا غلام لم يبلغ رشده ، ولكنني قد صحبت خادما تدرب على مساعدتي في هذا الفن وهو يستطيع ما لا يستطيعه الغلام الحدث غير البالغ الذي اعتاد ضاربو المندل استخدام مثله في هذه الاحوال ، لانني وجدت بالاختبار ان الاحداث يتعبون ضارب الرمل بما يستولي عليهم من الخوف مما يشاهدونه اثناء العمل من المناظر الغريبة ، اما خادمي فقد اعتاد هذا» .

فقال الشيخ : «وأين هو خادمك ؟»

قال : «في منزلي ، فأذن لي في ان اسير لاحضاره وجلب بعض المواد اللازمة في هذا العمل» . فأذن له وكلف عماد الدين ان يسير برفقته لئلا يفر او يتواطأ مع خادمه ، فسار الاثنان حتى اتيا المنزل فقال عماد الدين: «ها ان باب الفرج قد فتح لك باذن الله» .

ثم أفهم عبد الرحمن عليا ما يفعله عند فتح المندل ، وعادوا جميعا الى قاعة الشيخ ضاهر ، فجلس بجانب الكانون ، وفتح كتابه وألقى في النار قطعة من البخور وأخذ في القراءة والدعاء كما يفعل المنجسون ، ووقف علي بجانب وعاء الماء ، والشيخ ضاهر ورجاله شاخصون بأبصارهم وكأن على رؤوسهم الطير .

وبعد ان أتم القراءة قال لعلي : «ما ترى يا غلام في هذا الماء ؟» . فتأمل علي في الوعاء ثم تراجع كأنه رأى شيئا مخيفا . فقال له عبـد الرحمن : «لا تخف وقل ما تراه» .

قال : «ارى يا سيدي خياما عديدة منصوبة في سهل خارج مدينة عالية الاسوار ، وأعلاما عديدة مختلفة الاشكال ، وأرى في وسط تلك الخيام خيمة كبيرة امامها رجلان بسلاح كامل كأنهما حاجبان» .

فقال عبد الرحمن : «ادخل الخيمة وانظر ما فيها» .

فأمعن علي نظره كأنه يدقق في البحث عن شيء وقال : «ارى بساطا كبيرا مفروشا في ارض الخيمة ، وعليه رجلان : احدهما لابس قاووقا عليه عمامة ولباسه فاخر كأنه امير كبير ، والاخر يظهر من ملابسه انه وال كبير، وعلى رأسه عمامة وعلى كتفيه فروة سمور ، وأرى بينهما سيفا وكتابـا أظنه المصحف الشريف وقد جعل الرجل الاول يده فوقهما» .

فقال عبد الرحمن : «اسمع ما يقول واخبرنا به» .

قال : «اسمعه يقول : (أقسم بالله العظيم والنبي محمد سيد المرسلين

وخاتم النبيين وبرأس مولانا السلطان خليفة رسول الله ان أنبذ طاعة علي بك وأعصي اوامره ، وأعود الى طاعة مولانا امير المؤمنين الخليفة الاعظم وأحارب بسيفه وأذب عن حقوقه ولا اعرف سلطانا سواه ، وان حنثت في هذه اليمين ، كنت مخالفا للشريعة مجردا من الذمة والشرف، وأستحق القتل بهذا السيف !) ..»

فبغت الشيخ ضاهر وارتجفت لحيته في وجهه ، وكذلك كان شأن جميع رجاله . ولم يعد يستطيع صبرا فقال : «تبا له من خائن» . ثم جعل يده على حسامه وهزه كأنه يهدده .

فأومأ اليه عبد الرحمن وقال : «اصبر قليلا يا سيدي لعلي ارى شيئا اخر» .

ثم التفت السيد عبد الرحمن الى علي وقال له : «وماذا ترى ايضا ؟»

فتظاهر علي باشتداد خوفه واضطرابه وقال : «امهلني قليلا يا سيدي، ريثما يهدأ روعي وأستطيع التثبت من المناظر التي تبدو لي» .

فقال له : «هدىء روعك ، ولا تخف من شيء ما دمت بجانبك ، ثم امعن نظرك فيما امامك وأخبرنا بما ترى» .

قال وهو يرتعد متظاهرا بأنه ما زال خائفا : «ارى يا سيدي ان الرجل الذي يرتدي الفرو قد نهض ثم خرج وركب منصرفا» .

فقال : «حسنا ، وماذا ترى غير ذلك ؟»

قال : «ارى جماعة من الكبراء ، على رؤوسهم العمائم ، ويتدلى السيف الى جانب كل منهم فوق جبته ، وها هم اولاء قد دخلوا الخيمة الكبيرة التي خرج منها الباشا» .

فقال السيد عبد الرحمن : «ادخل معهم هذه الخيمة وانظر ماذا يصنعون » .

قال : «ارى الرجل الاول ما زال جالسا وأمامه المصحف والسيف ،

وقد اشار الى الداخلين بالجلوس فجلسوا وأخذ يحدثهم» •

فقال : «وماذا يقول لهم ، اصغ جيدا لكلامه واحذر ان يفوتك منه شيء » •

قال : «اسمعه يقول لهم : (ما زال علي بك يبعث الينا بأوامره المشددة ، كي نواصل الاسفار والحروب وتتكبد المشاق والاخطار ، وهو ناعم بالعيش في قصره بين حريمه وسراريه ، ويستأثر وحده بثمرة جهادنا وتعبنا • فما قولكم ؟) ••»

ثم تململ علي في مجلسه متظاهرا بالتعب ، فقال له السيد عبد الرحمن : «امض في الاستماع لما يدور بين القوم من الاحاديث ، وأخبرنا بم اجابوه» •

فتنهد علي ، ثم استأنف تفرسه في الاناء وقال : «لقد تشاوروا فيما بينهم ، ثم فوضوا الرأي له مؤكدين انهم أطوع له من بنانه في كل شيء ، ثم عززوا ذلك بأن وضعوا ايديهم على المصحف والسيف اللذين امامه وأقسموا ليكونن رهن اشارته • وهذا هو يثني على همتهم ويقول لهم : (ان علي بك يريد ان تذهب أعماركم في الحروب والفتوحات في سبيل تحقيق مطامعه التي لا تقف عند حد • ولهذا ارى ان نرجع الى مصر وكفى ما قاسيناه من الغربة وأخطار الحروب حتى الان ، فاذا لم يعجبه ذلك فليس له عندنا الا هذا) • وأشار الى السيف الذي امامه» •

وكان الشيخ ضاهر مرهفا سمعه لتتبع كل ما يقوله علي ، فلما سمع عبارته الاخيرة على لسان ابي الذهب ، لم يتمالك عواطفه وأخذ ينتفض من شدة التأثر ، ثم نهض وجرد سيفه وراح يهزه بقوة قائلا : «ويل لك يا أبا الذهب ،ويل لك يا خائن !»

وهنا تظاهر كل من علي والسيد عبد الرحمن بأن الجهد قد نال منهما ، وطلبا ماء للشرب فجيء لهما به • وبعد ان شربا جلسا يمسحان

عرقهما وهما يلهثان تظاهرا بالتعب والاجهاد .

ودنا الشيخ ضاهر من السيد عبد الرحمن وسأله : «أأنت واثق من صحة ما رواه غلامك ؟» . فأجابه بقوله : «نعم يا مولاي انني واثق بصدقه كل الثقة فهو لم يرو لي الا الصدق منذ استخدمته حتى الان . ثم اني اضع نفسي رهنا عند مولاي حتى يتحقق الامر بالوسيلة التي يراها » .

فقال الشيخ ضاهر : «الحق اني جد معجب ببراعتك في الطب والتنجيم ، ولهذا ستكون من حاشيتي منذ الان ، للانتفاع بعلمك في اي وقت » .

فهم السيد عبد الرحمن بيد الشيخ ضاهر وقبلها وقال : «اني عبد مولانا ، ولا شيء أحب الي من هذا الشرف العظيم» .

ثم أمر الشيخ ضاهر بأن يخصص له مسكن خاص في القلعة ، وأن تخلع عليه أثمن الخلع ، ويجاب كل طلب له . وسر السيد عبد الرحمن بهذا لعله ينفعه في البحث عن ولده وزوجته ، لكنه خشي ان ينكشف امره اذا لاح للشيخ ضاهر ان يمتحنه بفتح مندل اخر . وأخيرا لم يسعه الا الرضا بما كان مسلما امره لله فيما يكون . ثم التمس من الشيخ ضاهر ان يأذن له في ابقاء خادمه معه ، فأذن له في ذلك .

- ١٥ -

خروج علي بك من مصر

امضى السيد عبد الرحمن وعلي خادمه اياما في القلعة وهما موضع

الاكرام والاحترام من كل من فيها • ثم جاء عماد الدين بعد ذلـــك فاجتمع بهما وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث في مختلف الشؤون : الى ان قال عماد الدين للسيد عبد الرحمن : «يجب ان تنتهز فرصة الحظوة التي نلتها لدى الشيخ ضاهر للبحث عن حسن» •

فقال السيد عبد الرحمن : «ان هذا أهم ما يشغل بالي ؛ ولكنـــي اخشى ان أخاطب الشيخ ضاهر في ذلك فتقل ثقته بي وتحدثه نفسه بأني لو كنت بارعا في التنجيم حقا لاستطعت الاهتداء الى مقر ولدي • فما رأيك انت ؟»

قال : «ولماذا تخاطب الشيخ ضاهرا نفسه في هذا الامر ؟•• يكفي ان تتصل بحراس ابواب المدينة ، وتكلفهم ان يبلغوك امر اي شخص غريب صفته كذا وكذا يدخل المدينة او يخرج منها ، وتذكر لهــــم أوصاف حسن» •

فقال : «هذا رأي صائب ، وسأعمل به في اقرب وقت» •

وفي صباح اليوم التالي خرج السيد عبد الرحمن وعلي من القلعة . وطافا بكل ابواب المدينة موصيين حراسها بابلاغهما في القلعة امر اي غريب تنطبق عليه أوصاف حسن ، وذكراها لكل منهم بالتفصيل •

ثم تذاكرا امر سالمة ، فقال علي لسيده : «ارى وقد داخلنا شيء من الاطمئنان على سيدي حسن ، ان تبقى انت هنا حتى يأذن الله بلقائه عما قريب ، وأمضي انا الى مصر فأبحث هناك امر سيدتي والدته» •

فقال السيد عبد الرحمن : «لقد نطقت صوابا ، وغدا أستأذن فـــي سفرك على انك ذاهب الى مصر لاحضار بعض الادوات والمعـــدات والعقاقير اللازمة لاتقاننا مهنة التنجيم والطب» •

وكان الشيخ ضاهر عند حسن ظن السيد عبد الرحمن وزيادة ؛ فانه ما كاد يعلم منه برغبته في ايفاد خادمه الى مصر لذلك الغرض حتى وافق

وأظهر ارتياحه التام ، ثم نادى كاتب سره وأمره بأن يبلغ امره بتزويد خادم الطبيب بكل ما يحتاج اليه في سفره من مؤونة ومال وأن تسير في ركابه كوكبة من الفرسان لحراسته في الطريق ذهابا وايابا ، مع اعطائه كتاب توصية الى علي بك صاحب مصر لتسهيل مهمته باعتباره من حاشيته وأتباعه .

ولم يسع السيد عبد الرحمن الا ان يقبل يد الشيخ ضاهر شاكرا . ثم خرج من عنده فقابل عليا وبشره بما كان . وفي اليوم التالي كانت معدات السفر كلها قد أعدت فودعه طالبا له التوفيق ، وعاد الى القلعة ينتظر ما تأتي به الاقدار .

اما علي فما زال يجد السير ليل نهار حتى وصل الى يافا مع ركبه ، فاستراحوا فيها يوما ، واشترى من هناك ملابس شامية استبدل بها ملابسه المغربية ، ثم واصلوا رحلتهم الى غزة فالعريش فالصالحية وكان السفر قد أجهدهم فقرر الاستراحة هناك يومين او ثلاثة ثم يواصلون السفر الى القاهرة .

وفيما هم في الصالحية ، شاهدوا عند العصر غبارا عاليا الى الغرب منها قد حجب الافق وكاد يحجب الشمس ، ثم ما لبثوا ان علموا بأنه غبار جيش من المماليك أعوان علي بك ، وقد خرج به من مصر هاربا من وجه صهره ابي الذهب ، ووجهته عكا للاحتماء فيها بالشيخ ضاهر حليفه .

فقال علي لنفسه : «هذا ما كان متوقعا منذ عاد ابو الذهب من دمشق حانقا معتزما التمرد والغدر» . ثم مضى رفقاؤه فوقفوا لمشاهدة موكب الحاكم الهارب المطرود ، فاذا بالموكب يضم اخلاطا من الرجال والنساء والاولاد ، بين مشاة وركبان ، وعلي بك في مقدمتهم على جواده ، وقد ازداد وجهه عبوسا وتجهما ولكن الذل والانكسار غالبان

على هيئته . فقال علي : «هذه نهاية كل جبار عنيد ، وسبحان المعز المذل» .
ثم تذكر كتاب التوصية الذي يحمله اليه من الشيخ ضاهر ، فرأى ان يسلمه له وان لم يكن في ذلك ما يفيده شيئا بعد ان اصبح الامر في مصر لابي الذهب ، فدنا من علي بك ولوح له بالكتاب ، فأوقف هـذا جواده وتناول الكتاب منه سائلا : «ما شأنك وماذا تريد ؟»

فقال : «اني من أتباع الشيخ ضاهر الزيداني في عكا ، وهذا كتاب منه الى مولاي» .

ففض علي بك الكتاب وقرأه ثم طواه وجعله في منطقته ، وأشعل غليونه وأخذ ينفث الدخان من فيه في غضب يحاول كبته فلا يستطيع . ثم اخذ يسأل عليا عن أحوال الشيخ ضاهر ومدى قوة جنده وما الى ذلك، وأخيرا قال له : «اني ذاهب الى عكا للقاء مولاك ، وستجد في القاهرة ما تريد ان شاء الله» . ثم همز جواده واستأنف الموكب سيره . فعاد علي الى رفقائه ، وأقنعهم بأن ينضموا الى موكب علي بك عائدين معه الى عكا . ثم واصل هو سيره الى القاهرة للبحث هناك عما تم في امـــر سيدته .

* * *

لبث حسن مقيما بكنيسة النبي ايليا في ضواحي بيروت منتظرا مرور قافلة ذاهبة الى عكا ليصحبها اليها . ولكن انتظاره طال حتى مل الاقامة بتلك المنطقة . كما ضعف امله في بقاء ابيه في عكا حتى ذلك الوقت، ولاسيما انه لا يستطيع الظهور فيها وحاكمها الشيخ ضاهر متحالف مع علي بك في مصر ، فلن يتأخر عن القبض عليه وارساله اليه ان هو وقف على حقيقة امره .

وكانت هواجسه تشتد كلما تصور ان أباه رجع الى مصر ليرى ما أخره ووالدته عن اللحاق به الى عكا ، وانه علم هناك بما أمر به علي بك من اغراقه في النيل وأخذ والدته للخدمة في قصره .

وفيما هو جالس يقطع الوقت بالتحدث مع قسيس الكنيسة ، علم منه بما كان من قدوم ابي الذهب لفتح دمشق ثم رجوعه الى مصر واستيلائه على مقاليد الحكم فيها بعد طرد علي بك منها ، فكان سروره بذلك النبأ عظيما وقال : «هذه عاقبة الخيانة والظلم ، ولسوف يلقى علي بك ما هو أمر وأدهى» .

فقال القسيس : «على كل حال ما اظن ان أبا الذهب يكون أعدل حكما من علي بك» .

قال : «هذا رأيي ايضا ، فأبو الذهب قد نشأ في بيت علي بك ، وتلقى عليه مبادىء الظلم والاستبداد وسفك الدماء والدسائس ، وبرع في كل هذا الى ان أولاه مولاه كل ثقته وزوجه بابنته ، ولكن الله جل شأنه يسلط بعض الظالمين على بعض ، وكما دالت دولة علي بك على يد ابي الذهب ، تدول دولة هذا على يد اخر قريبا باذن الله» .

فقال القسيس : «نسأل الله ان يمحق الظالمين جميعا ، على اني ما زلت أوجس خيفة على ابي الذهب من علي بك نفسه ، لان مجيء هذا الى الشيخ ضاهر حليفه في عكا انما هو للاستنجاد به وبالاسطول الروسي المتحالف معهما ، وأكبر الظن انهما سيسارعان الى نجدته ومعاونته على استرداد حكم مصر من يد ابي الذهب ، وهذا لن يقوى على دفعهم مجتمعين» .

فقال حسن : «نسأل الله ان يبيد دولة المماليك جميعا ، فان التاريخ لم يشهد حكاما في مثل جبروتهم وظلمهم» .

فأمن القسيس على دعائه وقال : «انه لا يهد أركان الممالك كالظلم والانغماس في اللهو والفجور ، ولعل حكم علي بك كان أقل جـــورا وفـادا من حكم أسلافه الذين سبقوه من المماليك» .

فتنهد حسن وقال : «كان هذا صحيحا في اول امره ، لكنه ما لبث قليلا حتى فاق بظلمه كل من سبقوه ، فكم خرب من بيوت كانت عامرة، وكم سفك من دماء ، وانتهك من حرمات» . ثم غلبته عواطفه فأخذ في البكاء حزنا على ما اصابه وأسرته من ظلم علي بك .

فأخذ القسيس يعزيه ويحاول الترفيه عنه الى ان قال له : «لعلــك راغب في السفر الى عكا ، وقد علمت اليوم من قريب لي انه ذاهب اليها بعد يومين في صحبة وفد من اللبنانيين بعث به الامير يوسف شهاب الى الشيخ ضاهر ، فاذا شئت فاني اوصي قريبي هذا بأن يهيىء لك مكانــا معهـــم » .

فهم حســن بيد القسيــس وقبلها شاكرا . وفي اليوم التالي مضى به القسيس الى قريبه السالف الذكر ، وأوصاه به خيرا ، فهيأ له هذا جوادا وزادا ، وألحقه بقافلة الوفد اللبناني ، فسار فيها آمناً حتى وصل الى عكا بعد العصر بقليل .

* * *

ما كاد حسن يدخل المدينة من الباب الشرقي حتى استوقفه حارس الباب وأخذ يتفرس فيه ، ثم سأله عن اسمه والى اين هو ذاهب ، فارتبك حسن ولم يدر كيف يجيب ، فقال له الحارس : «ان لدي امرا بحجزك وارسالك الى مولانا الشيخ ضاهر في القلعة» .

فأجفل حسن ومليء قلبه رعبا وفزعا ، لعلمه بتحالف الشيخ ضاهر مع علي بك ، ثم تجلد قليلا وقال للحارس : «اني غريب عن هذه المدينة ، وليس فيها من يعرفني او أعرفه ، فلعل شخصا غيري هو المطلوب» •

فقال الحارس وهو يشير اليه بالجلوس بجانبه قرب الباب : «كلا بل انت الشخص المطلوب نفسه ، ولا شك عندي في ذلك ، اذ تنطبق على هيئتك جميع الصفات التي ذكروها لي» •

فلم يبق لدى حسن ادنى شك في ان امره قد انكشف ؛ وان الامر بالقبض عليه ليس سوى تمهيد لتسليمه الى علي بك ، فلم يتمالك عن البكاء حزنا وأسفا على سوء حظه الذي أوقعه في يد ذلك الظالم من جديـد •

ورق الحارس لحالته ولم يدر سبب بكائه فقال له : «لا داعي للبكاء والجزع يا سيدي فان رسول الشيخ ضاهر الذي ابلغني وصف هيئتك وطلب حجزك وارسالك الى القلعة اوصى بارسالك اليها معززا مكرما ؛ وأعتقد انك ستكون هناك اكثر حظا من الاعزاز والاكرام» •

فقال حسن : «اي اعزاز وأي اكرام يا سيدي ؟!• انني أتوسل اليك بكل عزيز لديك ان تطلق سراحي لارجع من حيث اتيت ، فاني لـــم أقترف اي ذنب ، ولا رغبة لي في الذهاب الى القلعة» •

فقال الحارس : «لو انني خليت سبيلك ، لقبض عليك غيري ، فقد علمت ان الامر الذي صدر في شأنك ابلغ اليهم جميعا ، واعلم ان الشيخ ضاهرا ورسوله ليسا في القلعة الان ، اذ خرجا للقاء علي بك القادم الينا من مصر ولن يعودا الا غدا ، وستكون عندي في ضيافتي معززا مكرما حتى يرجع الجميع الى القلعة ، ولن يكون الا ما تحب ان شاء الله» •

- ١٦ -

اجتماع الشمل

وصل علي خادم السيد عبد الرحمن الى القاهرة ، وقد استبدل بملابسه الشامية ملابس مصرية حتى لا يستغشه احد ، وقد وجد الناس فيها بين شامت بعلي بك ومتوجس خيفة من ابي الذهب •

وأخذ طريقه عقب وصوله الى دار السيد المحروقي رأسا ، اذ رأى انه خير من يسأله في شأن سيدته دون ان يكون في ذلك خطر عليه • فلما بلغ الدار وطرق الباب فتح له احد الخدم وسأله عما يريد ، ثم اخبره بأن السيد مسافر الى خارج القاهرة منذ حين ولن يعود قبل شهرين •

فسقط في يد علي ، لكنه لم يجد بدا من الانتظار حتى يرجع السيد من سفره ، على ان يبحث هنا وهناك خلال ذلك عسى ان يعلم شيئا عن مصير سيدته •

ولم يسفر بحثه عن نتيجة ، فبقي في حيرة وقلق الى ان عاد السيد المحروقي فخف الى مقابلته ، وما كاد يكشف له عن حقيقة امره ومهمته حتى قلب السيد كفيه عجبا وأسفا وقال : «لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، لقد وقفت على المخبأ الذي لجأت اليه سيدتك بعد ان انقذت الست نفيسة زوجة علي بك حياتها ، وكانت مختبئة في بعض الاديار ، فلما قامت الثورة بين علي بك وصهره ابي الذهب ، انتهزت هذه الفرصة وسعيت الى اخراج سيدتك من الدير ، وأرسلتها مع بعض رجالي الامناء الى عكا للبحث عن السيد عبد الرحمن زوجها هناك ، وقد بشرتها بأن ابنها قد نجا ايضا بفضل الست نفيسة ، وفر الى سوريا» •

فعجب علي لهذا الاتفاق ، وقال : «جزاكم الله خيرا يا سيدي على كل حال ، وهو القادر جل شأنه على ان يجمع شملهم ويسعدهم بالامن والطمأنينة بعد كل هذا الذي نالهم من ظلم علي بك الذي نال جزاء ظلمه وخروجه من طاعة السلطان فأخرج من مصر مذموما مدحورا» .

فهز السيد المحروقي رأسه اسفا وقال : «حقا لقد طغى علي بـــك وتجبر ولم يقف في مطامعه عند حد ، ولكنه مع هذا كان خيرا من ابي الذهب ، فهذا وان تظاهر باعادة البلاد الى حوزة الدولة العلية دولـة الخلافة ، يسعى في الخفاء لكي يأخذها لنفسه ، وليس في مصر من يحبه لما عرف عنه من الميل الى الغدر والخيانة» .

فقال علي : «وماذا يرى السيد في استنجاد علي بك بالشيخ ضاهر حاكم عكا والاسطول الروسي الموجود فيها الان ، وهو يضم ثلاثة آلاف من الجنود الالبانيين (الارناءوط) للهجوم من البر ، عدا من فيه مـــن الجنود البحريين ؟»

فقال السيد المحروقي : «مهما يكن من امر ، فلا شك في ان الدولة الروسية لا تعاون هؤلاء الجهلة حبا في معاونتهم ، ولكنها تفعل ذلك ، لتحارب بهم الدولة العلية وتشغلها بما يقومـــون به من فتن ودسائس وثورات داخلية» .

قال : «وهل ترون ان ابقى في القاهرة ، ام اعود الى عكا لاخبر سيدي بما كان والبحث عن سيدتي هناك ؟»

فقال : «ان سفرك وحدك لا يخلو من الخطر ، فانتظر هنا الى ان تصحب قافلة او حملة ذاهبة الى هناك» . ثم أمر باعداد غرفة خاصة له في منزله يقيم بها ، ودعا الله ان يختم مأساة أسرة صديقه السيـــــد عبد الرحمن بما يسعدها وينسيها ما قاسته من شقاء وعذاب .

* * *

عاد السيد المحروقي الى داره بعد ايام ، فدعا اليه عليا خادم السيد عبد الرحمن وقال له : «لقد جاءت الانباء بقدوم علي بك الى الصالحية في جيش كبير من الالبانيين التابعين للاسطول الروسي ومن جنود الشيخ ضاهر حليفه . وقد تغلبوا هناك على جنود ابي الذهب ، ودخلوا البلدة فاتحين وقد جند ابو الذهب جيشا كبيرا واعتزم الخروج به الى الصالحية لصد علي بك . وعلمت ان هذا عاد من عكا مريضا لا يستطيع الاشراف على المعارك » .

فقال : «وكيف أقدم على المجيء للحرب وهو مريض ؟»

قال : «لم يكن راغبا في المجيء قبل ان يشفى ، ولكن أبا الذهب احتال لاستقدامه وهو في هذه الحالة من المرض والضعف ليسهل عليه صده ، وكانت الحيلة التي استخدمها لذلك ان كتب اليه على لسان المعلم رزق الذي كان كاتبا لحساباته ومن خاصة مستشاريه ، وبقي في مصر بعد خروجه منها ، مستمرا في الدعاية له ومكاتبته سرا . وقال ابو الذهب لعلي بك في هذا الكتاب الموقع عليه بامضاء المعلم رزق : (عليك ان تعجل بالقدوم لمحاربة ابي الذهب ، فلا شك في ان اهل القاهرة وجميع احزابها يودون عودتك وينتظرونك بفارغ الصبر . الى غير ذلك مما يحبب اليه القدوم . وقد نجحت الحيلة ، وجاء علي بك الى الصالحية وأخذها . ولكني لا ادري عاقبة الامر على كل حال فان أبا الذهب مسافر غدا في حملة لمحاربة علي بك في الصالحية ، فاذا افقت الحملة الى قرب الصالحية فيمكنك التحول من هناك الى حيث تشاء ، اذ تكون قد وصلت الى مأمنك . والرأي لك» .

فقال علي : «وكيف يمكنني مرافقة الحملة وأنا لست منها ، فقد يستغشونني ؟ »

قال : «يمكنك مرافقتها بصفتك بائع مأكولات» .

فاستحسن علي الرأي ، وأخذ يعد ما يلزم لسفره ، واشترى صندوقا كبيرا من خشب جعل عليه بعض انواع المأكولات ، وتزيى بزي الباعة وانخرط في سلك الحملة ، وساروا يريدون الصالحية .

* * *

بقي حسن في ضيافة حارس باب عكا ، في انتظار عود الشيخ ضاهر . وفي صبيحة اليوم الثالث وصلت البشائر بقدومه مع علي بك ورجالهما ، فخرج الناس بالطبول للاحتفال بملاقاة القادمين ، وجلس حسن الى نافذة مطلة على السهل خارج القلعة لعله يشاهد الاحتفال ، فاذا بالغبار يتكاثف عن بعد ، ثم انقشع عن خيالة يتقدمهم اثنان عرف انهما الشيخ ضاهر وعلي بك ، لما في لباسهما من الزخرف وما أحدق بهما من الحاشية ، وكل منهما على جواده كأنه اسد . ثم تذكر انه محجور عليه بأمر الشيخ ضاهر وربما حكم عليه بالقتل او الحبس ، فانقبضت نفسه ولكنه اشتغل بمشاهدة الموكب وهو يدخل القلعة . فدخل اولا الاميران وحاشيتهما على خيولهم ، ثم تقاطر الناس أفواجا ، وفيهم الرجال والنساء والاولاد في الزي المصري ، فتذكر والدته وهاجت أشجانه واشتد اشتياقه اليها . وأخذ ينظر الى النساء لعله يستأنس بمنظرهن لمشابهتهن لها بالزي . وفيما هو يتأملهن وقع نظره على واحدة منهن تشبهها قامة ومشية ، فخفق قلبه لها واستأنس بها ، وجعل يمعن نظره فيها . وكانت كلما اقتربت من الباب ازداد استئناسه بها حتى ترجح لديه انها هي بعينها ، فازداد خفقان قلبه وطارت عيناه شعاعا تطلعا اليها ، وود لو انها ترفع نظرها اليه لعله يتحقق ظنه ويعرفها من وراء الازار واليشمك ، ولكنها كانت مطرقة كئيبة والى جانبها رجل عرف انه من خدم السيد المحروقي . فأخذ يتردد بين الشك واليقين حتى دخلا الباب ، فحدثته نفسه ان ينزل لملاقاتهما ، وهم

بذلك ثم خاف ان يمنعه الحراس ، ولكنهم كانوا في شغل بملاقـــاة القادمين ، فنزل حتى اتى الباب وأمعن نظره في المرأة والرجل . امـــا الرجل فحالما رآه عرفه لكنه لم يتحققه جيدا لما هو فيه من اللباس المغربي.

فتقدم اليه حسن وأمعن نظره فيه وفي المرأة حتى كاد يتحقق انهـــا والدته . اما هي فحالما وقع نظرها عليه رمت نفسهـــا عليه وصاحت «ولدي» . وأغمي عليها . فهم بها وأمسك يدها وأخذ يخفف عنها ويقبل يديها ويدعوها باسمها ، حتى افاقت فضمته اليها وجعلت تقبله وتشكـر الله على مشاهدتها اياه ، والناس وقوف قد أدهشهـــم ذلك المنظر ، خصوصا الحارس لما رأى من بكائهما ولهفتهما ، ثم دخل بهما الى غرفته وهما متعانقان والدموع تتساقط على خديهما . فلما جلسا اخذت سالمة تسأل حسنا عن امر ابيه ، فذكر لها انه لا يعلم مقره وقد جاء للبحث عنه ظنا منه انه في عكا . وأخبرها انه محجور عليه هناك لسبب لا يعلمه . فسألت الحارس عن سبب ذلك القبض ، فقال : «لا أعلم يــا سيدتي ، ولكني امرت من احد رجال سيدي الشيخ ضاهر ان أقبــض عليه» . فتذكر حسن صديقه عماد الدين فقال في نفسه : «لعلي ان وجدته انتفع به في هذه المسألة» .

وكان حسن لا يعلم عن مكان عماد الدين شيئا بعد ان غادره فـــي بيروت . فسأل البواب عنه فقال هذا : «ومن اين لك معرفته ؟»

قال : «هو صديقي ، عرفته منذ اشهر ، فهل هو في المدينة ؟»

قال : «نعم هو هنا ، وقد أوصاني هو ايضا وشدد الوصية فـــي القبض عليك» .

فانبسط وجه حسن ونهض واقفا من الفرح وقال : «اذن فالقبض علي لخير والحمد لله ، لان الرجل صديق وبيننا عهود وثيقة تقضي بمساعدة احدنا الاخر» .

ثم التفت الى البواب قائلا : «وأين عماد الدين الان ؟»
قال : «لا بد من انه قدم مع القادمين ، وعما قليل اسأل عنه وأستقدمه اليك» .

وبعد قليل ، مضى الحارس فغاب قليلا ثم عاد ومعه عماد الدين ، فما وقع نظر هذا على حسن حتى هم به وعانقه وأخذ يقبله ودموع الفرح تتساقط على خديه . ثم حانت منه التفاتة الى أم حسن وهي جالسة هناك ، فسأله عمن تكون ، فقال : «هي والدتي ، ولم يبق الا ان يكتب الله لنا الاجتماع بأبي» .

فقبل عماد الدين يد السيدة سالمة وهنأها بالسلامة ولقاء حسن ، ثم قال لهما : «اني أهنئكما وأهنىء نفسي بأن السيد عبد الرحمن في خير وأمان ، بل هو الان من اكابر المقربين الى الشيخ ضاهر ، وقد خصص له مسكن الى جواره في هذه القلعة» .

فلم يتمالك حسن ووالدته من البكاء فرحا بهذه البشرى ، ثم اشار عليهما بالذهاب معه الى منزله والانتظار هناك حتى يأتي اليهما بالسيد عبد الرحمن ، بعد ان يمهد لديه لهذا اللقاء حتى لا تضره المفاجأة . فنهضا وصحباه الى منزله بعد ان ودع حسن حارس الباب وشكره على حسن ضيافته .

* * *

كان السيد عبد الرحمن قد أوى الى حجرته عقب عودته الى القلعة ، فلما دخل عليه عماد الدين وجده مطرقا يفكر وعلائم القلق بادية في محياه .

فقال له : «فيم تفكر يا صديقي ؟.. ألا تحمد الله على ما نلت من حظوة لدى حاكم المدينة ؟»

فقال السيد عبد الرحمن : «آه يا عماد الدين !•• اني لو أعطيت ملك الدنيا كلها ما انساني ذلك حزني لفراق حسن ووالدته وانقطـــاع اخبارهما • واني لاضرع الى الله ان يعجل برجوع علي خادمي من مصر عسى ان يكون قد وقف على شيء عنهما هناك ، فقد كاد اليأس مـــن لقائهما يستولي على قلبي» •

فقال عماد الدين : «ولم اليأس يا سيدي ، أليس الله بقادر على ان يجمعك بهما قبل رجوع علي من مصر ؟»

قال : «ان الله قادر على كل شيء ، ولكنني اخشى ان يذهب عمري وأنا لا ازال أبحث عنهما» • وأخذت عبراته تتساقط على خديه •

فتأثر عماد الدين لبكائه وقال له : «لقد صبرت طويلا يا سيدي ، والصبر مفتاح الفرج ، وقد جئتك الان مبشرا بنبأ فيه ما يسرك» •

فهب السيد عبد الرحمن واقفا وقال له : «ما هو هذا النبأ •• قل يا ولدي ، بشرك الله بكل خير» •

قال : «قد علمت الان من مصدر وثيق الاطلاع ان حسنا جـــاء الى عكا » •

فهم به السيد عبد الرحمن وقبله باكيا وهو يقول : «وأين هو ؟•• هل عرفه حراس ابواب المدينة فاحتجزوه ؟»

قال : «نعم عرفه احدهم وهم بارساله الى هنا في القلعة تنفيـــذا لامرك ، ولكن ••»

فقاطعه سائلا : «ولكن ماذا ؟• هل عليه من بأس ؟»

فقال : «لا بأس عليه ، لكنه شاهد بين القادمين من مصر مع علي بك جماعة من خدم صديق لكم هناك اسمه السيد المحروقي ، وعلم منهم انهم قادمون للبحث عنك وعنه ومعهم سيدة يهمها امركما» •

فازداد بكاء السيد عبد الرحمن من شدة الفرح وقال : «لعلها سالمة»

أليس كذلك ؟»

فضحك عماد الدين وهم بالسيد عبد الرحمن فعانقه وقبله وقال : «نعم .. انها هي بعينها يا سيدي ، فهل ايقنت بأن الله قادر على كل شيء ، وانه لا يضيع أجر الصابرين» .

فسجد السيد عبد الرحمن شكرا لله ، ثم نهض وعاد الى معانقة عماد الدين وتقبيله وهو يقول : «لقد نفد صبري فاعذرني يا ولدي . فأين هم الان ؟»

فقال له : «هيا بنا نذهب لمقابلتهم» . ثم اصطحبه الى منزله فاذا بحسن وأمه ينتظران بالباب ، وأخذ الجميع يتبادلون العناق والقبلات وهم لا يكادون يصدقون اجتماع شملهم بعد طول الفراق .

* * *

اتفق الجميع بعد ذلك على ان يبقى حسن وأمه في منزل عماد الدين، ويعود السيد عبد الرحمن الى مسكنه في القلعة الى ان يرجع علي خادمه من القاهرة .

وبعد ايام ، قام علي بك بالعودة الى مصر على رأس ذلك الجيش العرمرم الذي أعده له الشيخ ضاهر من بين رجاله ورجال الاسطول الروسي حليفهما ، ثم جاءت الانباء بهزيمة هذا الجيش على حدود مصر، ثم معاودته الكرة حتى دخل الصالحية فاتحا ، وهناك خف الى لقائه محمد بك ابو الذهب على رأس جيش عظيم ، واستطاع ان يرده مرة اخرى، بعد ان أصيب علي بك وهو مريض في خيمته بطعنات عدة ، فنقل الى القاهرة اسيرا حيث مات متأثرا بجروحه ، وخلا الجو لابي الذهب .

وكان علي خادم السيد عبد الرحمن قد عاد اليه في عكا ، وأنباه بأن أبا الذهب في طريقه اليها للانتقام من الشيخ ضاهر الزيداني حاكمها . ثم

لم تمض ايام حتى جاءت الانباء بموت ابي الذهب فجأة في الطريق ، ففرح بموته الجميع . وكان السيد عبد الرحمن قد جمع ثروة طائلة من عمله في خدمة الشيخ ضاهر، فقرر العودة بأسرته الى مصر، وودعهم عماد الدين متعاهدا واياهم على التزاور وتبادل المكاتبات .

واستطاع السيد عبدالرحمن بعد اشهر من عودته ان يسترد أملاكه ومكانته التجارية في وكالة الليمون ، كما عاد حسن الى اتمام دراسته الطبية في البيمارستان المنصوري . وعاش الجميع في سعادة واطمئنان.